اقرأ

عبد العال الحمامصي

القرآن معجزة كل العصور

وموضوعات أخرى

دار المعارف

[٥٠٠]

القرآن معجزة كل العصور

وموضوعات أخرى

عبد العال الحمامصي

القرآن معجزة كل العصور

وموضوعات أخرى

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بدون الله كلكم أعدائى !

« إذا كان بعد كل الذى عشناه وفكرنا فيه .. ينتهى كل شىء .. إلى لا شىء .. وإذا كان لا شىء بعد الآن .. ونكون نحن لا شىء على كل حال .. وإذا كنا نعلم هذا .. فلماذا نعيش ؟ » .

* الشاعر الأمريكى : إدوين روبنسن .

ترجمة : د. نظمى لوقا .

* * *

نحن نعيش فى عصر مكروب ملتاث .. تهصره الأزمات .. وتمزقه الأطماع .. وضغائن المذاهب والنظريات .. وتلاحق الإنسان فيه أفانين التعاسة .. وضروب الانسحاق . وتهدده شتى المخاطر . من قدامه ومن خلفه . من داخله ومن غيره .. ويصلت المجهول سيفًا

يترصد طريقه. ويتعقب خطوه. وأصبح إنسان هذا العصر يعيش حياة لاهثة قلقة.. بلا معنى وبلا غاية.. ويتكالب على الاقتناء والاستجلاب والاستحواذ.. بحثًا عن الإحساس بالأمن.. ولكن فى النهاية تقبض يده على سراب اللا معنى. وعبث اللاجدوى وبمضغ وهم الهراء وقبض الريح.. إلا من اعتصم بحبل الله وآمن بأن هناك حياة أخرى تعطى رحلة الحياة الشاقة فى الدنيا طعمها.. ومعناها.. والقدرة على احتمالها ومواجهتها.. والحافز حتى تكون حياة الإنسان نبع نفع لغيره.. لا مصدر تعاسة تضاف إلى كل ما يقبح الحياة ويجعلها شائهة كالحة.. مقفرة من الظلال.

* * *

نحن نعيش فى عصر تضمر فيه الروح لأن أغلب ما حولنا يشجع تنمية المخالب والقواطع والأنياب وغرائز التوحد الأنانى، والاجتلاب المنهوم، والاستحواذ المسعور.. حيث عجزت كل الفلسفات والنظريات والأنظمة المطبقة.. عن أن تقدم للإنسان خلاصًا حقيقيًا فى ظل أوضاع تقيم التوازن بين احتياجات الجسم واستشرافات الروح.. بين طموح الفرد ومصلحة الجموع.. بين أهداف القوم.. وأمانى العالم!!

* * *

حتى العلم ربيب العقل البشرى ومفخرته. والذى كان من المأمول أن يسخر لسعادة الإنسان وأن تكون السيطرة على قوانين

الطبيعة وسيلة لأن تتاح للإنسانية حياة أكبر بهجة وأقل تعاسة .. فإذا بنا نجد أن القوى الشريرة فى عالمنا قد انقضت عليه واستغلته لصالح أهدافها النفعية .. مهما كانت النتائج مروعة ومدمرة .. وكانت الشقوة به أضخم من النعمة منه . وحتى الذين حاولوا أن يضفوا على العلم صفة المادية البحتة .. إنطلاقًا من هذا إلى دعوة العدل الخالص .. والشيوع المطلق .. فنحن عندما نتأمل ما فعلوه عند التطبيق نكتشف أنهم باسم هذا جاءوا بسخرة جديدة . استلبت من إنسان هذه المجتمعات البهجة ، وحولته إلى مجرد ترس فى آلة غولية .. خرافية .. مجرد رقم .. كائن لا شخص .. شىء له صورة الإنسان ، يكدح ويشقى وينفق فى النهائية من أجل هدف عدمى .. أبدًا لن يراه .. أبدًا لن يقطف ثمرته .. وحتى لو تحققت النتائج بعد أجيال كما يقال .. فما جدوى مسيرة مرهقة لكائن حى لن يقطف ثمرتها .. لن يصل إلى واحتها .. كان يمكن أن يحتمل هذا .. أن يتقبله .. إذا كان الله معه وكان فى داخله .. وكان حوله .. ولكن حتى الله سلبوه من داخل هذا الإنسان .. جردوه منه .. وإذا كان الله غائبًا ، فما جدوى أسطورة التقدم وحلم العدل المطلق .. والوفرة المتاحة . والحاجة المشبعة .. وكل هذا ليس لى ..لأجيال قادمة – ومن يضمن لى حتى هذا – ما الذى يخصنى أنا .. قطرات عرقى وكدحى أين ثمنها ؟ دمى الذى تحول إلى آلة وقطعة غيار .. وسفينة فضاء .. وقمر صناعى .. دمى أين ثمنه ؟ إذا لم يكن الله فى داخلى وأنا أصنع

كل هذا فسحقًا لها من حياة .. سُحقًا لها مادام الله لا ينتظرنى هناك عند شاطئ المعاد !!

* * *

إن المأساة نتجت عن كون بعض رجال الفكر قد حاولوا فصل العلم عن مصدره وهو الله جلت قدرته .. وعن أصله وهو القوة الإلهية الخارقة .. القدرة التى تقف خلف عقل الإنسان وتلهمه وتهديه وتوجهه .. وفى عصرنا استهوت البعض صرخة «نيتشة» عندما زعق بالوهم يزعم أن «الله .. مات» ثم مضى يبشر «بسوبرمانه» الإنسان الأعلى الذى سيمتطى صهوة التاريخ على جناح التقدم ..

ولكن من المحال أن تنفذ من أقطار السموات والأرض إلا بسلطان !! ونيتشة ذاته لم يعصمه «سوبرمانه» الوهمى من أن يتمزق من داخله .. وأن تنفذ جراثيم العصر داخل تكوينه فتقرض نسيج عقله . وتطرحه فى النهاية صريع الجنون .. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام !!

وها هو ذا العالم أمامنا .. مبسوط الصفحات .. واضح الحروف .. اغتر الإنسان بقوته .. بما فى قدرة عقله أن ينجزه .. بما فى وسع معامله أن تصل إليه .. ولكن الشى الأساسى الذى هو غاية أى تقدم وهو سعادة الإنسان .. هل تحقق ؟ . دوننا المجتمعات التى حققت بعض الوفرة . وبلغت فى الحضارة المادية شأواً بعيدًا .. ماذا نجد .. هل عصم التقدم روح الإنسان فيها من التمزق .. من الانهيارات من

التفكك الاجتماعى والانحلال الخلقى .. من الجنون . والمخدرات وعقارات الهلوسة والغيبوبة . من الانتحار والجريمة والضياع .. لماذا ؟ لأنهم أبعدوا الله عن نسيج حياتهم . عن سداها ولحمتها .. وكل شىء ما خلا الله باطل ! وهذا العالم الذى تناءت فيه المسافة بين الإنسان وبين طريق الله ، نجده فى كثير من جوانبه الشاهد والتطبيق لما سبق أن قاله الكاتب الروسى فيدور دستويفسكى « إذا لم يكن الله موجودًا فكل شىء مباح » .. كل شىء الآن مباح تمامًا .. ولكن تبقى الحقيقة أن حياة الإنسان ليست كما ينبغى أن تكون الحياة .. فلا خلاص إذن إلا بأن تعود إلى الله وبدون الله .. عبث هى الحياة !! أى عبث أكثر من الإحساس بأن الموت ينتظرنا .. كيف نواجه هذا الغول الذى يترصدنا فى كل لحظة .. ونعرف مقدمًا أنه قادم لا محالة .. الفقر يمكن أن يسول إلى الغرور أن أكون بمنجاة منه .. المرض .. يمكن أن أجتلب الاعتقاد بأننى أكبر منه .. كل خطر يمكننى أن أعيش فى وهم الإحساس بأننى سأوقاه .. ولكن الموت حقيقة أتنفسها منذ أتنفس الوجود .. فما الذى يجعلنى أقهره .. ولا أرتعب منه .. وأحيانًا استعذبه من أجل قيمة ومن أجل مبدأ ومن أجل قضية شريفة .. الله ولا شىء غيره ..

والحياة .. ما معنى أن أكدح .. أن أكافح .. أن أقطع حياتى من أجل تربية أبناء .. أو رعاية أب عجوز وأم مريضة . ما جدوى أن أضحى من أجل جار فى حاجة .. ومن أجل صديق فى شدة .. ومن

أجل زميل فى ورطة .. ما الذى يجعلنى أموت من أجل وطنى وأن أخاطر من أجل أن تسلم حياة الآخرين .. لا معنى لكل هذا .. إذا لم يكن الله معى . هنا يصبح لكل معاناة جدواها ولكل تضحية مذاقها . ولكل عذاب شرعيته !!

أنت فى الدنيا تملك أن تظلمنى .. أن تقهرنى . أن تستبدبى . أن تلفق لى التهم وأن تدبر لى الدسائس . وأى نظام فى الدنيا مهما تذرع بالعدالة والديمقراطية والحضارة فمن الممكن أن يظلم فيه الإنسان فى شرفه . فى عرضه . فى حريته . فى لقمة عيشه . فى إمكانات كفاءته .

احتمال قائم على الدوام .. فما الذى يعصم من يحيق به هذا .. من تمزق الإحساس بالظلم والقهر . ما الذى يعصمه من انهيارات العجز .. من حمل صخرة سيزيف بلا أمل من مواجهة اعتقاد الآخرين بأنه مدان وهو البرئ .. لا شىء غير الله فى داخله .. ثم هو ذاته .. هذا الشريف المدان .. ما الذى عصمه أولا من أن يكون سافلا ومنحطًّا .. ومنافقًا وانتهازيًّا .. ووصوليًّا ودنيئًا . وكان يمكنه أن يسرق وهو يرتدى ثوب الشرف . أن يقترف وهو يدعى البراءة . أن يستبد وهو يرتدى مسوح العدل ، أن يغتصب وهو يتدثر بلفاع القناعة . ما الذى يكبح كل هذا فينا ويعترضه ؟ .. القانون ؟ قانونكم هذا يمكن لأى إنسان أن يخدعه أن يضلله .. أن يعمل من وراء ظهره .. بل أن يسخره .. !! لا شىء غير الله وحده ! قد

يستطيع أى نظام متحضر عادل أن يحمينى من الظلم ومن الاستغلال ومن الاستبداد وأن يصون لى كرامتى وحريتى. وثمرة اجتهادى. ولكن هل يستطيع أن يحمينى من الطبيعة. من العواصف والزلازل والأعاصير. من الأفاعى والأوبئة والجراثيم.. وعندما أسقط فريسة داء وبيل من هذه الأمراض الخطيرة المنتشرة فى عصرنا هذا.. ما الذى يجعلنى أحتمل.. وما الذى يرغمكم أنتم.. زوجتى وابنتى.. أو أمى.. أو أختى أو أقربائى.. على أن تتحملوا قرفى ومعاناة خدمتى وعلاجى.. لا شىء غير الله فى داخلكم يصبركم على هذا.

* * *

وأخيرًا.. أقولها لكم.. أنتم إخوتى وأحبائى.. وأنا على استعداد لأن أواجه العذاب من أجلكم. أن أحتضن الجحيم دفاعًا عن حقوقكم وكرامتكم. وحرماتكم وأعراضكم. على استعداد لأن أقطع إربًا.. من أجل كل شىء يخصكم.. ولكن بشرط.. أن يكون الله معنا أن يكون فى.. وأن يكون فيكم.. حتى سفالة بعضكم ونذالة بعضكم وسخافة بعضكم.. وخسة بعضكم.. على استعداد لأن أحتملها.. وأيضاً بشرط أن يكون الله موجودًا.

باختصار.. أقولها لكم.. بدون الله كلكم أعدائى!!

وشهد شاهد من أهلها !

ما أكثر المحاولات المغرضة التى استهدفت إلحاق المفتريات الباطلة بالإسلام حقدًا عليه لطمس نوره ولكن الله لابد أن يتم نوره ولو كره المغرضون .. فباءت هذه المحاولات بالفشل والإخفاق وبقى الإسلام وسيبقى إلى الأبد ناصع الوجه، ساطع الحجة، مكفول الخلود .. يهرع إلى ساحته كل باحث عن الحقيقة، وكل متطلع إلى الخلاص .. وها نحن نرى أن الذين يلوذون بحظيرته هم صفوة رجال الفكر فى الغرب، وهؤلاء الذين أقدموا على اعتناق الإسلام نجدهم من رجال لا يقدمون إلا عن يقين، ولا يختارون إلا عن معاناة بينة .. فجميعهم من أصحاب الأوزان فى مجالات العلم والفكر والثقافة .. وهذه شهادة للإسلام بالغة الأهمية ..

ولنتوقف أمام كلمات العالم الفرنسى رينيه بينو بعد إسلامه (إننى تتبعت كل الآيات القرآنية التى لها ارتباط بالعلوم التى درستها منذ صغرى وأعلمها جيدًا .. فوجدت هذه الآيات تنطبق كل الانطباق على معارفنا الحديثة ».

ومؤخرًا أصدر العالم الفرنسى والطبيب موريس بوكاى كتابًا بعنوان « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » وقد انتهى فى كتابه هذا إلى حقائق كثيرة عن الإسلام من أهمها أنه لا يوجد نص فى القرآن يتعارض أقل تعارض مع ما ثبت من حقائق العلم .. فى بداية هذا الكتاب الهام يحدثنا المؤلف عن بوادر تحدث الآن فى الغرب تتعلق بتطور النظرة إلى الإسلام وهذه التطورات لا تأتى من جانب بعض المفكرين فحسب .. بل هناك مبادرة أقدم عليها الفاتيكان ذاته ماثلة فى وثيقة رسمية حاولت أن تصحح بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام « التى ورثنا الماضى إياها ، وشوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة » كما تقول الوثيقة .. كما أنها تقرر أيضًا « علينا أن نتطهر وبعمق من عقلياتنا نقول ذلك ونحن نفكر بالذات فى بعض الأحكام الجاهزة التى كثيرًا ما نصدرها باستخفاف على الإسلام ، ويبدو لنا هامًا وأساسيًا أن نكف عن أن ننمى فى مكنون قلوبنا النظرات المتسرعة بل الحكمية ».

ويفسر المؤلف هذه العبارة مؤكدًا ملاحظته بأن المعطيات الخاصة بالإسلام ظلت مجهولة لدى الغرب نظرًا للطريقة التى اتبعت فى

تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان .. وهذه الطريقة هى التى فرضت الجهل فى كل ما يمس الإسلام.

برغم أن القرآن الكريم - كما يؤكد المؤلف - هو الدين السماوى الأوحد الذى أوصى كل مسلم بالإيمان بما سبقه من تنزيل ورسل وأنبياء وأفرد لموسى وعيسى مكانة خاصة .. إن المؤلف يعتبر أن وثيقة الفاتيكان هى البداية لفهم حقيقى للإسلام بدلا من المغالطات المغرضة وغير الحقيقية التى سادت طويلا.

هذه مقدمة للحديث عن هذا الكتاب والنتائج المذهلة التى انتهى إليها بشأن الإسلام ومقارنة نصوصه التى تتعلق بمسائل علمية أو طبية أو تاريخية بما يماثلها فى كتب الأديان الأخرى ليقرر بأن الإسلام وحده هو الدين الذى لا يوجد به نص واحد يتعارض أى تعارض مع ما ثبت من حقائق العلم .. يقول هذا بشأن ما جاء فى القرآن الكريم عن الخليقة والكون .. والفلك والمجرات والنظام الشمسى والنظم الكوكبية .. وتعاقب الليل والنهار ودورة الماء والبحار .. وتركيب الأرض .. وأصل الحياة .. وعالم النبات وعالم الحيوان والتناسل الإنسانى والحيوانى والأجنة وغير ذلك من موضوعات تتصل بالعلم.

وفى مواجهة الذين يريدون أن يجردوا الإسلام من صفة التنزيل السماوى انسياقًا لنظرة جاهزة جاهلة عن الإسلام يقول المؤلف : «كيف أمكن لمحمد عليه السلام أن يتناول قبل الأربعة عشر قرنًا

حقائق علمية فى القرآن لم يكتشفها إلا التقدم العلمى فى القرون الحديثة لو لم يكن القرآن وحيًا منزلا لا شك فيه ولا ارتياب فى نصوصه».

«لذا فمن المشروع تمامًا أن ينظر إلى القرآن على أنه الوحى من الله وأن تعطى له مكانة خاصة جدًّا، حيث أن صحته أمر لا يمكن الشك فيها حيث أن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا، تبدو وكأنها تتحدى أى تفسير وضعى».

ويمضى فى دراسة نصوص القرآن ومقارنتها بنتائج العلم ليقول «لقد قمت أولا بدراسة نصوص القرآن ومقارنتها بنتائج العلم وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث .. وكنت أعرف قبل هذه الدراسة عن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة عن الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتى كانت وجيزة .. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لايحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث.

أما بالنسبة لما جاء فى الأديان الأخرى التوراة والأناجيل، فإن الأمانة العملية قد اقتضته أن يعلن بصراحة مطلقة. لقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا فى عصرنا «حتى أن المؤلف عندما يتعرض للتحديات التى تواجه

الأديان من الأفكار الإلحادية يقرر بأن الإسلام هو القادر وحده على مواجهة هذه التحديات ودحرها لأن أية مقولة إلحادية تتهاوى أمام منطق حقائقه .. وهذه النتائج التى انتهى إليها هذا الباحث العالم بشأن الإسلام يراها متسقة مع كون (أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توءمان متلازمان .. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ من الواجبات التى أمر بها الإسلام .. وأن تطبيق هذا الأمر هو الذى أدى إلى ذلك الإزدهار العظيم للعلوم فى عصر الحضارة الإسلامية تلك التى اقتات منها الغرب نفسه .

وهكذا تكشف لنا الحقائق التى وضعها أمامنا هذا الباحث العالم على أن القرآن كنز ثمين عظيم تتكشف لنا أصالة معدنه كلما تقدمت العلوم ، وكشفت لنا خبايا المجهول ، أو كما يقول المؤلف : (إن المعارف اللغوية المتبحرة لاتكفى وحدها لفهم هذه الآيات القرآنية ، بل يجب بالإضافة إليها امتلاك معارف علمية شديدة التنوع .. إن دراسة كهذه هى دراسة انسيكلوبيدية تقع على عاتق تخصصات عدة .. وسندرك كلما تقدمنا فى عرض المسائل المثارة تنوع المعارف العلمية اللازمة لفهم بعض آيات القرآن .. ومع ذلك فليس القرآن يهدف إلى عرض بعض القوانين التى تتحكم فى الكون . إن له هدفًا دينيًا جوهريًا ، وأوصاف القدرة الإلهية هى المناسبة الرئيسية فى توجيه الدعوات للبشر أن يتأملوا فى أعمال الخلق .. وليس الهدف من هذه الدراسة البالغة الجدية والعمق

والفهم ، إلا دحر الدعاوى المغرضة التى سادت العالم غير الإسلامى عن الإسلام .. وإذا كان مؤلف هذا الكتاب لم يفصح لنا عن شيء يدل على أنه قد أعلن إسلامه ، برغم هذا الدفاع الحار عن الإسلام وتمييزه عن كل ماعداه من أديان ، فإن كل سطر من كتابه يؤكد « إن الدين عند الله الإسلام » .

وما أن فرغت من هذا الكتاب حتى تذكرت قول العالم الكندى الدكتور وليم لانك الذى اعتنق الإسلام تذكرت قوله (لقد تذكرت خلال وقفاتى الكثيرة فى المشرحة أمام الجسد البشرى كل ماقرأته عن الإسلام وما جاء به من حقائق الجسد ، كل ماقرأته وما اختص به الله ذاته عن حقيقة الروح .. فاخترته طريقا إلى الله) ، نفس المنطق العلمى الذى جعل عالمة الذرة الإنجليزية (لادى كوستين) تحث خطاها إلى الإسلام بعد أن قدمت لها جزئيات تخصصها ما جعلها تهتدى إلى طريق الله .

القرآن .. معجزة كل العصور

مازلت مبهورًا بكتاب أصدره المفكر والطبيب الفرنسى « موريس بوكاى » . بعنوان « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » فى هذا الكتاب قام المؤلف برصد ماجاء فى الكتب المقدسة من نصوص ذات صلة بمسائل علمية ومن خلال المقارنة بين هذه النصوص وبين المعارف الحديثة انتهى إلى نتيجة تؤكد بأنه لم يجد فى القرآن نصًّا واحدًا يتعلق بهذه المسائل ينطوى على أى تعارض مع الحقائق التى توصل إليها العلم فى العصر الحديث .. ومن هذه النتيجة ينطلق ليفند المزاعم التى راجت فى الغرب طويلا ، محاولة أن تجرد القرآن العظيم من حقيقة أنه الوحى المنزل من السماء .. المنزه عن أن يكون من خلق البشر .. لأن ماجاء به من حقائق كان

من المستحيل أن تكون متاحة للبشر فى عصر نزوله ، وفى العصور التى جاءت بعده .. وفوق هذا فإن المؤلف من خلال هذه المقارنة قد اكتشف أن الإسلام وحده هو المعصوم من التعارض بين نصوصه وبين المعارف الحديثة على حين لم يتح هذا لكتب الأديان الأخرى .

وتأتى أهمية ماجاء فى هذا الكتاب .. لكونه يصدر عن عالم متمكن من ثقافته وأنه غير مسلم .. وإن كان هذا لايغير من حقيقة أن النتائج التى انتهى إليها دامغة ، لايمكن لمكابر أن يمارى فى شأنها .. انطلاقا من هذا ، أعتقد أن هذا الكتاب يعتبر من أخطر الكتب التى صدرت فى هذا القرن .. وأنه يمكن أن يحدث انقلابًا فكريًا واسع النطاق لو أتيح له أن ينتشر كما ينبغى لأنه يتضمن حقائق تهدم الفكر المادى من أساسه ، وأن كل ذرائع الإلحاد يمكن أن تتهاوى أمام حججه .. ولهذا أتمنى أن تقوم هيئة إسلامية بترجمته إلى جميع اللغات الحية .. بل أطمع أن تتكون هيئة إسلامية تكون مهمتها هى تقديم الإسلام إلى العالم .. حيث يمكن أن تجد الإنسانية فى الاسلام حلا لأزمتها وخلاصًا من ورطتها .. بعد أن أفلست كل المذاهب البشرية .. وأوقفت الإنسانَ فى النهاية على حافة الهاوية يمضع التمزق ويقتات الضياع .. ويتخبط فى متاهات الإحباط !!

كم كنت أتمنى أن يتسع الحيز هنا لأعرض عليك بعض معطيات هذا الكتاب ، لترى أن معجزة القرآن الكريم لاتكمن فى مجرد بلاغته الرائعة .. وإنما أيضًا فى حقائقه الدامغة .. وإذا كنت سأقدم

لك هنا بعض هذه المعطيات ، فيقينا ليست أهمها ، ولكنه مايتفق فى حجمه مع طبيعة المساحة المخصصة لهذا الحديث .. فى فصل بعنوان « غزو الفضاء » يقول المؤلف « من وجهة النظر هذه توجد ثلاث آيات قرآنية تستحق كل الانتباه . تتحدث إحداها ، وبشكل لا لبس فيه عما على البشر أن ينجزوا فى هذا الميدان وما سينفذونه بالفعل . وفى الآيتين الأخريين يستحضر الله مثالا يتوجه به إلى كفار مكة ليقول لهم كم تكون دهشتهم لو استطاعوا أن يرتفعوا نحو السماء ويشير بذلك إلى فرض لن يتحقق .. الآية الأولى من سورة الرحمن « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان » تفسير هذه الآية يحتاج إلى بعض التفاصيل :

(أ) إن اللغة العربية قادرة على تمييز الظرف بشكل أكثر صراحة ووضوحًا مما هو الحال فى لغات أخرى ، فهناك حرف للتعبير عن الاحتمال وهو « إذا » وحرف آخر للتعبير عن فرض الجائز وهو « إن» وحرف مدّ ثالث للتعبير عن الامتناع وهو « لو »

فالقرآن إذن يتحدث عن إمكانة مادية لإنجاز ملموس ، وهذا التمييز اللغوى ينحى بشكل حاسم التفسير الصوفى الصرف الذى أراد إعطاءه لهذه الآية .

(ب) « يخاطب الله الجن والإنس جوهريًا ، ليس فى هذا التعبير

استعارة رمزية » .

(جـ) « نفذ من » كما يقول قاموس كازميرسكى ، تعنى عبر من جهة إلى جهة وخرج من الناحية الأخرى لجسم ما .. تشير الآية إذن إلى ولوج عميق وخروج من جهة معاكسة للمناطق المعنية .

(د) « السلطان الذى سيكون للبشر فى تحقيق هذا المشروع ، يبدو سلطانًا نابعًا من الله القدير . وليس من شك فى أن هذه الآية تشير إلى إمكانات البشر ذات يوم بأن يحققوا مانسميه فى عصرنا – ربما بشكل غير مخصص بغزو الفضاء . ويجب ملاحظة أن النص يتحدث أيضًا عن النفاذ عبر مناطق الأرض .. أى استكشاف الأعماق .

أما الآيتان الأخريان منها هما الآيتان ١٤،١٥ من سورة الحجر : وفيهما يتحدث الله عن كفار مكة يقول تعالى :

(ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون .. لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) ذلك تعبير الدهشة أمام مشهد غير منتظر يختلف عن ذلك الذى ما كان يمكن للإنسان أن يتخيله .. ويعبر الامتناع بحرف « لو » الذى يدخل على فرض لن يتبعه أى إنجاز بالنسبة إلى هؤلاء الذين تعنيهم هذه الآية .. وعليه وفيما يخص غزو الفضاء فإننا نجد أنفسنا فى مواجهة فقرتين من القرآن تشير إحداهما إلى ما سيتحقق يومًا بفضل السلطات التى

سيخولها الله للفطنة والعبقرية البشريتين ، فى حين تشير الفقرة الثانية إلى حدث لم يشهده من كفر بمكة ، ومن هنا كانت سمة هذا الفرض الذى لم يتحقق . ولكن هناك آخرين سيعيشون هذا الحدث ، كما تترك الآية الأولى ذلك للفرض . إنها تصف رد الفعل الإنسانى أمام المشهد غير المنتظر الذى سيوهب لرواد الفضاء : نظرات مضطربة وشعور بالانسحار . كذلك تمامًا عاش رواد الفضاء تلك المغامرة الخارقة منذ عام ١٩٦١ . ومعروف فى الواقع أننا عندما نكون خارج طبقة الجو المحيطة بالأرض لاتبدو السماء مطلقًا فى صورتها اللازوردية الموهوبة لسكان الأرض . وذلك نتيجة امتصاص طبقات الجو للضوء الشمسى . إن الإنسان المشاهد الموجود فى الفضاء أبعد من الطبقة الجوية المحيطة بالأرض يرى السماء سوداء وتبدو له الأرض محاطة بهالة لونية زرقاوية وذلك لنفس سبب ظاهرات الامتصاص الضوئى لطبقة الجو الأرضية . على حين أن القمر الذى لايحيط به جو فإنه يبدو فى ألوانه الخاصة به على خلفية سوداء من السماء . هو إذن مشهد جديد تمامًا ذلك الذى يراه الإنسان فى الفضاء . مشهد أصبح صورة « كلاسيكية » بالنسبة للناس فى عصرنا .

كيف لا ننبهر عندما نقابل نص القرآن بالمعطيات الحديثة .. لتلك التحديدات الدقيقة التى لايمكن افتراض أنها صدرت عن فكر إنسان عاش منذ أربعة عشر قرنًا تقريبًا ..؟

* سبحـــان ربى .. أحاط بكل شيء علما *

واختار لك مسألة أخرى من المسائل التى عرضها هذا الكتاب دليلا على إعجاز القرآن فى كل جوانبه .. يتحدث المؤلف عن مسألة تطور الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن .. حيث لايحتوى هذا الوصف على أية مقولة يستطيع العلم الحديث أن يعارضها .. تقول الآية ١٤ من « سورة المؤمنون » : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحماً ..) المضغة تشير إلى مايشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم فيعنى اللحم النضر .. ويستحق هذا التمييز الالتفات إذ أن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره يكون كتلة صغيرة تبدو فعلا للعين المجردة كاللحم الممضوغ ، ويتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة . وبعد أن تشكل العظام تتغطى بالعضلات . والمعروف أن بعض الأجزاء فى أثناء مدة تطور الجنين تبدو غير متناسبة على ماسيكون عليه الفرد فى المستقبل على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة . ذلك هو معنى كلمة « مخلق » التى تعنى تشكيل النسب التى جاءت فى الآية ٥ من سورة الحج لتشير إلى هذه الظاهرة : « فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » كما يذكر القرآن أيضا ظهور الحواس والأحشاء (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) الآية ٩ من « سورة السجدة » .. كما يشير أيضا إلى تشكل الجنس فى الآيتين ٤٥ ، ٤٦ من « سورة النجم » : (وأنه خلق الزوجين

الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) وكذلك تذكر الآية ١١ من سورة فاطر ، والآية ٣٩ من سورة القيامة ، عملية تشكل الجنس كذلك .

وعندما يقارن المؤلف كل هذه النصوص القرآنية بالمعلومات التى ثبتت فى العصر الحديث .. ينتهى إلى النتيجة التى يستهدف تأكيدها .. وهى توافق المقولات القرآنية توافقًا باهرًا مع المعلومات الحديثة .. وهو لايستهدف هذه النتيجة لذاتها ، بل لينطلق منها إلى التأكيد بأن القرآن هو الوحى المنزل من الله .. لأنه من خلال مقابلة هذه المقولات بالمعتقدات والمعلومات التى كانت سائدة فى عصر محمد ﷺ .. أعنى فى عصر تنزيل القرآن الكريم ، تسطع الحقيقة بأن ماجاء به القرآن لايمكن أن يخطر على بال أحد فى ذلك العصر .. ذلك أن معطيات المعرفة الحديثة هى التى أعانتنا على تفسيره وإدراكه .. فالواقع يقول لنا بأن المتخصصين فى ذلك لم تتح لهم معرفة واضحة إلى حد ما عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر .. « فطيلة القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية التى لاتتمتع بأى أساس ، هى قاعدة مختلف المعتقدات فى هذا الموضوع .. بل لقد سادت أيضًا لقرون عديدة حتى بعد العصور الوسطى .. إن المرحلة الحاسمة فى تاريخ علم الأجنة بدأت بدعوى « هارفى » الذى قال عام ١٦٥١ بأن كل شىء حى يأتى أولا من بويضة .. وأن الجنين يتخلق تدريجيًا جزءاً بعد جزء .. وفى هذا العصر كان العلم الوليد قد استفاد كثيرا فى الموضوع المعنى

هنا ، باختراع المجهر الذى كان قد تم فى عصر سابق بقليل .. وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائرًا حول دورى كل من البويضة والحيوان المنوى وكان « ليفون » عالم الطبيعيات ينتمى إلى أتباع فكرة البويضة .. وكان منهم أيضًا « بونى » الذى كان يدافع عن نظرية اندماج البذور القائلة بأن مبيض حواء أو الجنس البشرى كان يحتوى على بذور كل الكائنات الإنسانية متداخلة .. كل فى الآخر .. وقد حظى هذا الفرض ببعض التأكيدات فى القرن الثامن عشر .

ولكن قبل ذلك بقرون عديدة أكدت مقولات القرآن عن التناسل البشرى فى ألفاظ بسيطة حقائق أنفقت البشرية المئات من السنوات لتتوصل إليها .

إنه القرآن معجزة العصر .. ومعجزة كل العصور ..

وأعود من جديد لأعرب عن أملى فى أن تقوم هيئة إسلامية بترجمة هذا الكتاب إلى كل اللغات .. وأن تتكون هيئة إسلامية تكون مهمتها الأولى والأساسية أن تقدم الإسلام إلى العالم .. هذا الذى أنقذه الله بالإسلام مرة .. وعلينا أن ننقذه - تنفيذًا لإرادة الله - بالإسلام مرة أخرى .. إن كنا حقًا مسلمين !!

الخالدون مائة
أعظمهم محمد رسول الله ﷺ

لا ينال أى كاتب صاحب تأثير مكانته المرموقة لدى الجماهير القارئة وموقعه الفعال فى خريطة الحركة الثقافية اعتباطًا أو منحة ولا بمجرد الحظ وحده.. فالحظ قد يكون له دوره فى مجالات أخرى.. ولكن فى مجال الثقافة والفكر والأدب، فكل إنسان يساوى حجمه.. ولا يحصل إلا على ما يستحقه وفق هذا الحجم وفى حدود مقاسه.. فمكانة الكاتب فى ساحة الثقافة، وموقعه فى خريطة التأثير، لا يمكن أن يحرزهما إلا بقيمة ما يقدمه ويعطيه.. من خلال الموهبة والثقافة والتجويد والتفوق والتجاوز والإضافة ومعاناة أن يكون..

وإذا كان أنيس منصور بعمق عطائه كمًّا وكيفا، يقف فى طليعة

الكتاب أصحاب الأساليب المميزة فى أدبنا العربى .. وأن يكون من أكثر الكتاب رواجاً وجاذبية لدى القراء ، فإن الثقافة الواسعة التى اعتبرها همه الأول قارئًا ومنتجًا ، هى التى أتاحت له هذه المكانة التى حققت المعادلة الصعبة باجتذاب الصفوة المثقفة والاستحواذ على القاعدة القارئة ..

وبجانب ما أعطاه أنيس منصور فى مجالات الأدب والفكر والفن والنقد والرحلات والتراجم والمسرح والقصة والصحافة ، فلا يمكن أن يتغاضى عن دوره الهام فى حركة الترجمة وإقامة جسور التفاعل بين الثقافة العربية والثقافة العالمية فى عصرنا .. وكذلك مبادراته لتقديم مواهب أو معالم أدبية عالمية ، كنا على غير علم بها بجانب متابعته المواكبة لأحدث ما يجد فى العالم من نظريات واتجاهات وكتب ، فقد تضافرت عنده منذ البداية عملية تقديم ما لديه مع عملية تقديم أفضل ما لدى الغير .. وهذا الدور الأخير يضاف فى الحقيقة إلى دوره الأساسى كاتبًا ومبدعًا ..

هذه كلمة لابد منها ولا يمليها غير ضمير الحقيقة الموضوعية وحدها إنصافًا لكاتب مثابر تعددت مواهبه ومجالات عطائه بمناسبة التعرض لكتاب يقدمه لنا أنيس منصور بعنوان « الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ » عن كتاب « المائة » من تأليف العالم الأمريكى الفلكى والرياضى « مايكل هارت » وهو كتاب بالغ الأهمية يجىء بمثابة موسوعة وافية عن شخصيات عبقرية مختارة من

أفذاذ التاريخ وصناعه فى مجالات الدين والسياسة والحرب والعلم والأدب والفن قديمًا وحديثًا .. فمن بين آلاف الشخصيات المتفردة التى تضمها دوائر المعارف والتى تركت بصماتها المطبوعة على التاريخ، اختار لنا المؤلف مائة من أعمقهم أثرًا وأبقاهم تأثيرًا، ليقدمهم لنا من خلال رؤيته .. ومن الطريف أننا نجد بين هؤلاء بعض العبقريات ذات التأثير المدمر مثل هتلر مثلا .. ولكن منهج الكاتب فى الاختيار يحتم أن يكون الشخص بالغ الأثر فى حركة التاريخ والحياة سواء كان هذا الأثر طيبًا أو جاء خبيثًا !!

ومن عوامل الاعتزاز بهذا الكتاب الذى تتبدّى لنا من خلاله مسيرة التاريخ والحضارة .. أن المؤلف الأمريكى عضو هيئة الفضاء الأمريكية قد وضع نبى الإسلام رسولنا العظيم محمدًا ﷺ على رأس القائمة التى اختارها واعتبره أعظم هؤلاء الصفوة من الذين جاءوا قبله ومن بعده .. كما اختار الفاروق عمر من بين هؤلاء .. ومن الحق أن هناك لدينا من أفذاذ العلم والثقافة العربية من كانوا يستحقون أن يدرجوا ضمن هذه القائمة، وقد قال أنيس منصور ملاحظًا هذا : «إن المؤلف الأمريكى لم يقلب طويلاً فى التاريخ الإسلامى أو الفكر العربى وإلا لوجد عطاء فى كل فروع المعرفة، ففضل العرب والمسلمين على الحضارة الغربية معروف له ولغيره من العلماء الجادين المخلصين. ومن المؤكد أن الرجل مخلص وصادق فى حكمه على الكثيرين من عظماء التاريخ» مهما يكن من أمر فالمؤلف

يستحق الامتنان.. وإن كان لم يلق امتنانًا من أحد فى العالم الإسلامى كما يقول أنيس منصور.. وستكون مفاجأة له أن يقدم له أنيس منصور نسخة عربية من هذا الكتاب.. وكان قد استأذنه من قبل لينشره مسلسلا فى مجلة «أكتوبر».. ثم أجرى مسابقة للقراء حوله كانت جوائزها عشرات الكتب.. فقد أراد أن يكون الجزاء من جنس العمل على حد تعبيره !!

ولا يتاح لى هنا أن أعرض عليك الكتاب بحذافيره وتعدد مادته وشخصياته.. كل ما أستطيعه أنى سأتوقف بك عند الشخصيات ذات الطابع الدينى من أصحاب الرسالات السماوية مثل محمد ﷺ وعيسى وموسى عليهما السلام.. وإذا كنت سأعرض عليك بجانب هذا ما جاء عن عمر بن الخطاب والقديس بولس فلأن كل واحد منهما كان له تأثيره البالغ فى حركة دينه والامتداد بها خارج موطن هذا الدين.

لهذا.. كان محمد هو الأعظم:

جاء محمد ﷺ على رأس قائمة المائة الذين انتقاهم المؤلف بين أفذاذ التاريخ وعمالقة العصور. ذلك لأنه رآه الإنسان الأوحد فى التاريخ الذى تمكنت عبقريته من النجاح المطلق على المستوى الدينى والدنيوى.. فهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأضفت عبقريته التوافق الرائع على شخصيته قائدًا

سياسيًا وعسكريًا ودينيًا وبرغم مرور ١٣ قرنًا على وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قويًا ومتجددًا .. ثم يبرهن المؤلف على عظمة محمد وجدارته بالمركز الأول فى قائمة العظماء بأن أكثر الذين قد ضمهم هذا الكتاب بعده قد ولدوا ونشئوا فى ظلال مراكز حضارية ومن شعوب متحضرة سياسيًا وفكريًا ، إلا محمد فقد جاء من منطقة متخلفة بعيدة عن مراكز الحضارة والثقافة والفن .. وبعد أن يعرض المؤلف للمنعطفات والمراحل ذات المعالم الحاسمة فى حياة محمد وفى رسالته .. يعود إلى محاولة تقويم النتائج التى ترتبت على هذه الرسالة وانتصارها .. فقد وحد القبائل فى وطنه ، وتمكنت رسالته بعد ذلك من أن تتوحد عديد الأمم تحت راية واحدة هى راية الإسلام .. وبهذا تمكن هؤلاء البدو الذين استحوذت دعوته على كيانهم وقلوبهم وضمائرهم وعقولهم ووجداناتهم ، من إقامة إمبراطورية شاسعة عريضة ممتدة من حدود الهند حتى المحيط الأطلسى .. والمؤلف يصف هذه الإمبراطورية بأنها أعظم إمبراطورية أقيمت فى التاريخ حتى اليوم ..

ويطرح المؤلف بعد ذلك تساؤلا حول اختيار محمد ليكون أول المائة قائلا : « وربما بدا شيئًا غريبًا حقًا أن يكون الرسول ﷺ على رأس هذه القائمة برغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين ، وربما بدا غريبًا أن يكون الرسول عليه السلام هو رقم واحد فى هذه القائمة فى حين عيسى عليه السلام هو رقم ٣ وموسى عليه السلام

رقم ١٦ » ولكن المؤلف لديه أسبابه فهو يقول : « ولكن لذلك أسباب من بينها أن الرسول محمدًا ﷺ ، قد كان دوره أخطر وأعظم فى نشر الإسلام وتدعيمه ، وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام فى الديانة المسيحية .. وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق فى المسيحية .. غير أن القديس بولس هو الذى أرسى أصول الشريعة المسيحية .. وهو أيضًا المسئول عن كتابة الكثير مما جاء فى كتب « العهد الجديد » .. أما الرسول ﷺ ، فهو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعى والأخلاقى وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية .. كما أن القرآن الكريم قد أنزل عليه وحده . وفى القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه فى دنياهم وآخرتهم .. والقرآن الكريم نزل على الرسول ﷺ كاملا . وسجلت آياته وهو ما يزال حيًا . وكان تسجيلا فى منتهى الدقة ، فلم يتغير منه حرف واحد .. ليس فى المسيحية شىء من ذلك ، فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم . وكان أثر القرآن الكريم على الناس بالغ العمق .. لذلك كان أثر محمد ﷺ أكثر وأعمق من الأثر الذى تركه عيسى عليه السلام على الديانة المسيحية » ، ولأن الرسول كان قوة جبارة وعبقرية فذة ، فالمؤلف يعتبره أعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ .. وهو يرى كذلك أن بعض الأحداث التاريخية الكبرى

كان من الممكن أن تقع بغير أبطالها المعروفين.. ولكن ما حدث خلال حياة محمد وبعد وفاته ما كان يمكن أن يتحقق بغير وجوده. ويضرب المؤلف الأمثال على هذا من وقائع التاريخ.. ثم يعرّج على حقيقة ماثلة تأكيداً لدور الإسلام ودرو محمد.. حقيقة أن القرآن الكريم العظيم هو الذى حفظ للعرب لغتهم وأنقذها من عشرات اللهجات الغامضة، وأنه هو الذى يوحد بينهم برغم الخلافات.. ثم ينهى المؤلف حديثه عن محمد مؤكدًا بأن الامتزاج بين الدين والدنيا فى شخصيته الفذة هو ما جعله يؤمن إيمانًا مطلقًا بأن محمدًا ﷺ، هو أعظم الشخصيات أثرًا فى تاريخ الإنسانية بأسرها..

عن المسيح عليه السلام:

عندما يتعرض المؤلف لشخصية المسيح عليه السلام والتى وضعها فى الترتيب الثالث بعد محمد ﷺ، وإسحاق نيوتن، نراه يبدأ بالرد على التساؤل الذى يتعجب من وضعه فى هذا الترتيب وهو صاحب أكثر الأديان انتشارًا فى العالم يقول المؤلف:

«ليس المهم فى هذه الدراسة هو أثر الديانة فى الناس، ولكن أثر أصحاب هذه الديانة فيهم.. والديانة المسيحية تختلف عن الإسلام.. فالمسيحية لم يؤسسها شخص واحد وإنما أقامها اثنان: المسيح عليه السلام والقديس بولس، ولذلك يجب أن يتقاسم شرف إنشائها هذان الرجلان.. فالمسيح عليه السلام قد أرسى المبادئ

الأخلاقية للمسيحية، وكذلك نظرتها الروحية وكل ما يتعلق بالسلوك الإنسانى، أما مبادئ اللاهوت فهى من صنع القديس بولس.. فالمسيح هو صاحب الرسالة الروحية ولكن القديس بولس أضاف إليها عبادة المسيح.. كما أن القديس بولس هو الذى ألف جانبًا كبيرًا من «العهد الجديد» وكان المبشر الأول للمسيحية فى القرن الأول الميلادى، وقد ألمح المؤلف إلى أن هناك بعض الباحثين يرون أن القديس بولس هو مؤسس الديانة المسيحية.. وليس واضحًا ما كان سيئول إليه أمر المسيحية لولا القديس بولس.. ولو أخذ المؤلف بهذا الرأى لكان معنى هذا أن يضع بولس قبل المسيح فى هذه القائمة.. وإذا كان لم يفعل فذلك بسبب أنه «من المؤكد أيضًا أنه لا مسيحية بغير المسيح» وهذا تعبيره..

ويعرج المؤلف بعد ذلك مؤكدًا بأن السيد المسيح عليه السلام ليس مسئولا عن الذى أضافته الكنيسة أو رجالها إلى الديانة المسيحية.. فالكثير مما أضيف بعد ذلك يراه المؤلف متنافيًا مع تعاليم السيد المسيح ذاته.. وفى معرض تبرير اختياره لهذا الترتيب ينبرى لمناقشة قضية أخرى.. فهو يرى أن العلوم إذا كانت قد تطورت فى العالم الغربى المسيحى.. فليس معنى هذا أن المسيحية هى السبب فى نهضة العلوم فى العشرين قرنًا الماضية.. فليس فى شروح رجال الدين المسيحى ما يدل على التأمل فى الكون أو الدعوة إلى التفكير العلمى. ومن المؤكد - كما يقول المؤلف بالنص الحرفى: أن تحول

الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية، قد صاحبه فى نفس الوقت انحطاط رهيب المستوى للتكنولوجيا والاهتمام بالعلم.. أما نهضة العلوم فى أوربا، فالمؤلف يردها إلى خصائص ذاتية فى الحضارة الغربية تناسب الأسلوب العلمى فى التفكير.. وهذه الخصائص ليس مرجعها إلى تعاليم المسيحية وإنما هو التفكير العقلى الإغريقى.

وليسمح لى القارئ فى هذه النقطة فحسب أن أقطع مجرى هذا الحديث بملاحظة ليست من مادة هذا الكتاب.. فلعل من المناسب هنا أمام ما قاله المؤلف أن تتداعى قضية هى أن بعض غلاة التفكير العنصرى فى الغرب من المتعصبين تعصبًا أعمى، قد أرجع تخلف العالم الإسلامى وتدهوره، لا إلى الظروف التى مر بها، وإنما حاولوا إلصاق التهمة بالإسلام ذاته، وحملوه وزر الواقع السيىء.. ثم زعموا تأسيسًا على هذا أن تقدم الغرب وحرية أفراده يرجع إلى المسيحية ذاتها.. وهذا واحد منهم يرد عليهم بطريق غير مباشر.. فتخلفنا ليس فى الدين علته وتقدمهم ليس للدين مرده، وإنما هناك أسباب يعرفها التفكير العلمى الموضوعى ويتجاهلها التعصب الدينى المغلق..

ونعود إلى كتابنا هذا البالغ الأهمية وإلى هذا الفصل من السيد المسيح عليه السلام الذى يصفه المؤلف بأنه كان عميق الأثر فى الناس حوله، وكان فى غاية الشجاعة بكل معانى وأعماق هذه

الكلمة .. « وهو على خلاف محمد ﷺ لم يمارس السياسة ولا السلطة الدينية، فلم يكن ليسوع أى دور سياسى فى حياته، ولا كان للمسيح أثر سياسى فى المسيحية، ولو طبقت هذه المبادئ ما ترددت لحظة واحدة فى أن أضع المسيح فى أول هذه القائمة ولكن الحقيقة أنها لم تلق رواجًا واسعًا بين الناس ولا حتى هى مقبولة عند الناس .. فأكثر المسيحيين يرون أن الدعوة لأن « نحب أعداءنا » .. إسراف فى المثالية لا يمكن تطبيقه إلا فى عالم خيالى. ونحن عادة لا نطبق هذا المبدأ ولا نتوقع من الآخرين أن يفعلوا ذلك. ولا حتى ننصح أطفالنا بأن يمشوا على هداه. وكذلك معظم تعاليم السيد المسيح ظلت محيرة .. كما أنها نصائح لم يحاول تطبيقها كثيرون !

وبرغم أننى هنا مجرد عارض لبعض فصول هذا الكتاب فيما يختص بأصحاب الرسالات السماوية والذين كان لهم أثر كبير فى دعمها ونشرها والامتداد بها خارج الأرض التى نزلت فيها مثل : عمر بن الخطاب، والقديس بولس، ولكل منهما أثره البالغ فى ذلك .. برغم أننى هنا مجرد عارض ليس إلا ، ولست ناقدًا أو محللاً أو مراجعًا .. ولكن أمام الفقرة السابقة عن تعاليم السيد المسيح أسمح لنفسى بهذه الملاحظة .. قد يكون ما قاله المؤلف عن تعاليم السيد المسيح صحيحًا .. وأنها ظلت بعيدة عن التطبيق .. ولكن هذه التعاليم برغم عدم واقعيتها وجنوحها إلى المثالية التى تبدو مستحيلة

يمكن أن تكون مرشدًا للإنسانية نحو السلوك الأفضل .. وإذا لم تكن قد طبقت فى زمان المسيح ولا فى الأزمنة التالية .. فإنها برغم هذا ظلت قوة أخلاقية دافعة نحو السلوك الأفضل المحتمل وإن لم يطبق بعد .. !!

بولس الرسول :

بولس الرسول الرومانى الجنسية والذى ولد فى طرسوس فى العام الرابع الميلادى .. وتعلم فى القدس وكان فى الأصل يهودى الديانة قبل أن يعتنق المسيحية .. يضعه المؤلف فى الترتيب السادس من قائمة العظماء المائة .. ويراه أكبر المبشرين بالمسيحية ومن أهم الذين تركوا أثرًا هائلاً فيها .. ومن الغريب أنه عندما تعرضت المسيحية للمطاردة ، وتعرض أتباعها للتعذيب بعد وفاة السيد المسيح ، كان هو أحد الذين أسهموا فى هذا الاضطهاد واتهام بعض أتباعها بالزندقة والكفر .. ولكنه عندما ما كان فى رحلته إلى دمشق رأى المسيح عليه السلام فى نومه .. فبادر باعتناق المسيحية وأصبح من أعظم أعمدتها ..

وانطلق فى البلدان والأمم يبشر بالمسيح ولا يبالى بالخطر .. ولم يستطع أحد غيره لا من قبله ولا من بعده أن يقوم بأهميته وفعالية الدور الذى اضطلع به .. فهو الذى كتب عن المسيحية وطور أصول شريعتها .. ومن بين السبعة والعشرين سفرًا من كتاب العهد

الجديد .. ألف بولس لوحده أربعة عشر سفرًا .. !!

ومن أهم أفكاره أن يسوع لم يكن نبياً بشرًا فحسب .. بل كان إلهًا حقًا .. وأنه مات من أجل التكفير عن حياة البشر .. وأن الخلاص لا يكون بمجرد الإيمان بالكتب المقدسة وإنما بالإيمان بيسوع .. وبولس كذلك هو الذى أوضح فكرة الخطيئة الأولى .. ولكن المؤلف يرى أن تعاليم بولس لم يكن المسيح عليه السلام ذاته يبشر بشىء مما جاء فيها مثل تفضيله - القديس بولس - لعدم الزواج - وكان هو عزبًا - أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه خير لهم أن يبقوا مثلى » كما يرى المؤلف أن بولس هو المسئول الأول عن تحويل الديانة المسيحية من مجرد طائفة يهودية إلى ديانة كبرى .. وهو المسئول كذلك عن تأليه المسيح .. ويورد رأى بعض فلاسفة المسيحية فى كون القديس بولس هو الذى أقام المسيحية وليس المسيح .. ولكن المؤلف يحاول أن يكبح جماح هذا الرأى معترضًا بأنه ما كان يمكن أن يكون لبولس هذا القدر العظيم لولا المسيح نفسه !

موسى عليه السلام :

عندما يتحدث مؤلف هذا الكتاب عن سيدنا موسى عليه السلام يقول عنه : « لم يحترم الناس إنسانًا فى التاريخ مثلما احترموا موسى عليه السلام ولم يكن اليهود فقط هم الذين احترموه .. فقد تضاعف الاحترام بانتشار المسيحية فى أوربا بعد ٥٠٠ عام فى الميلاد ..

وعندما ظهر الإسلام بعد ذلك بقرن واحد اعترف بموسى نبيًّا وبانتشار الإسلام لقى موسى عليه السلام مزيدًا من الاحترام.. وبعد مرور ٣٢ قرنًا من ميلاده أو وفاته ما تزال له مكانة رفيعة بين أتباع كل الديانات.. والمؤلف يرى احتمال أن يكون موسى قد ولد فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد لأن رمسيس الشهير بفرعون موسى قد توفى عام ١٢٢٧ قبل الميلاد.. وبمناسبة ذكرى فرعون موسى يورد لنا المؤلف رأى بعض المؤرخين بأن موسى عليه السلام مصرى الجنسية.. لأن كلمة موسى أو موزس أو موزيس كلها كلمات فرعونية تدل على معنى الابن..

وبعد أن يتحدث المؤلف عن معجزات موسى المتواترة مثل الطاعون المتعدد الأنواع الذى أصاب أهل مصر.. ومثل عصاه التى تحولت إلى أفعى والتى ضرب بها البحر فانشطر قسمين.. بعد هذا ينوه عن آراء بعض المؤرخين والتى فحواها أن لهذه المعجزات كلها أصولها السابقة فى الأساطير البابلية القديمة. ولكن المؤلف - الذى وضع موسى فى الترتيب السادس عشر من القائمة - يعود فيقول إن هناك ثلاثة إنجازات كبرى حققها موسى عليه السلام.

أولاً: نجاحه فى أن يكون زعيمًا سياسيًّا استطاع أن يخرج اليهود من مصر.. وهذا عمل يستحق التقدير..

ثانيًا: إنه صاحب الكتب الخمسة الكبرى فى التوراة: «سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر

التثنية » وهى الأسفار التى أودع فيها كل تعاليمه الدينية التى كانت تحكم سلوك اليهود القدامى .. وخصوصًا أنها تضمنت الوصايا العشر .. ومن أجل هذه الكتب وهذه التعاليم يستحق موسى أن يوصف بأنه رجل عظيم الصبر والاحتمال والأثر فى ملايين اليهود ..

وإن كان المؤلف يعود بعد ذلك ليقول : « ولا يختلف المؤرخون على أن موسى ليس وحده الذى ألف هذه الكتب بل شاركه فى ذلك مؤلفون كثيرون بعد وفاته .. » .

ثالثًا : لأن بعض المؤرخين يرون أن موسى هو أبو التوحيد ويستندون فى ذلك إلى ما جاء فى التوراة .. ولكن هذه التوراة نفسها تؤكد لنا أن أبا التوحيد هو إبراهيم عليه السلام .. ولكن هذا التوحيد - فى رأى المؤلف - ما كان يمكن أن يستمر لولا موسى عليه السلام .. فهو الذى أحياه وأبقاه وثبته فى قلوب اليهود .. فقد آمن إيمانًا تامًا بإله واحد لا شريك له .. وهذا الإيمان هو الذى يجعل مكانته فى الأديان وتاريخها رفيعة وعالية .

الفاروق .. عمر بن الخطاب

جاء ترتيب عمر بن الخطاب رقم ٥١ فى قائمة الخالدين المائة الذين أفردهم المؤلف من بين عشرات الألوف من عظماء التاريخ واعتبرهم الخلاصة أو الصفوة .. وهو من البداية يجد شبهًا بين سيدنا عمر بن الخطاب وبين بولس الرسول .. من حيث أن كل واحد

منها كان يناصب دينه العداء قبل أن يعتنقه.. ثم أصبح من أشد المؤمنين به دفاعًا عنه ونشرًا له.. فكل منها كان صاحب أكبر الأثر فى امتداده ورسوخه خارج أرضه.. وبعد أن يعرض المؤلف لجوانب من حياة عمر ومراحلها المميزة يقول: «وفى فترة خلافة عمر التى استغرقت عشر سنوات تحققت الفتوحات الكبرى للإسلام فقد غزت جند المسلمين سوريا وفلسطين وكانت فى ذلك الوقت جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية وفى معركة اليرموك سنة ٦٣٦ م انتصر العرب على قوات بيزنطة وسقطت دمشق فى نفس السنة وبعدها بسنتين سقطت القدس أيضًا، وعندما كانت سنة ٦٣٩ م غزت الجيوش العربية مصر، وهى الأخرى كانت تحت السيطرة البيزنطية. وفى خلال ثلاث سنوات تم للعرب الاستيلاء على مصر.

وبعد ذلك يعدد المؤلف فتوحات عمر بعد الانتصار فى معركة القادسية وإتمام السيطرة على العراق واستيلاء الجيوش الإسلامية على بلاد فارس بعد المعركة الفاصلة فى نهاوند عام ٦٤٢ م ثم يعرب عن اعتقاده بأن هذه الانتصارات إذا كانت هامة فإن الأهم منها هو صمود المسلمين فى البلاد التى استولوا عليها.. وينبرى المؤلف للإشادة بسياسة عمر الحكيمة التى أبعدت القوات الفاتحة عن المدن لتعيش فى الثكنات.. ولكونه كذلك لم يفرض الدين الغالب على أحد بالقوة.. وهو يرى أن ما أنجزه عمر شىء باهر، فقد كان هو الشخصية التى نشرت الإسلام ومعظم البلاد التى غزتها جيوش

المسلمين ظلت عربية إسلامية حتى يومنا هذا .. صحيح - كما يقول المؤلف - إن الفضل أولا وأخيرا للرسول عليه الصلاة والسلام وهو من أجل عظمة شخصيته ﷺ استحق بجدارة أن يكون الرقم الأول فى المائة .. ولكن كثيرًا من الفضل فى ذلك - فضل نشر الإسلام وتدعيمه - يعود إلى عمر بن الخطاب بعبقريته وذكائه ..

ثم ينهى الحديث عن عمر بطرح ملاحظة وجيهة «وربما بدا غريبًا أن شخصية مثل عمر بن الخطاب ليست معروفة لدى الغرب مثل شخصيات شارلمان أو يوليوس قيصر، ومع ذلك فقد استحق هذا المكان الرفيع بين الخالدين .. ولكن الغزوات التى شنتها جيوشه، ومدى ما تركته من أثر فى التاريخ .. أخطر بكثير مما تركه كل من يوليوس قيصر وشارلمان».

شخصيات أخرى ذات طابع دينى:

ولم يقتصر جانب تغطية العقائد الدينية فى هذا الكتاب على من عرضته من أصحاب الرسالات السماوية أو من كان لهم أبلغ الأثر فى تدعيم بعضها مثل بولس الرسول بالنسبة للمسيحية وعمر بن الخطاب بالنسبة للإسلام .. فهناك شخصيات أخرى وردت فى هذا الكتاب بعضهم أصحاب مذاهب اتخذت شكل ديانات .. وبعضهم كان له الطابع الدينى فى كل ما قام به مثل «بوذا» «داعية» «النرفانا» أى انعدام كل شىء فى أعماق الإنسان ومازالت ديانته

حية ومؤثرة لدى ملايين الأتباع فى العالم، وقد وضعه المؤلف فى الترتيب الرابع من قائمة المائة، و «كونفوشيوس» الذى جاء ترتيبه الخامس، وإذا كانت ديانته قد انقرضت فى الصين بعد تحولها إلى الشيوعية إلا أن المؤلف لا يستبعد أن يظهر فى الصين بعد مدة فيلسوف جديد يقوم بالتوفيق التام بين تعاليم كونفوشيوس ومبادئ «ماوتسى تونج». «ومارتن لوثر» صاحب نظرية «البروتستانتية»، وزعيم حركة الاحتجاج ضد طغيان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.. «والبابا أوربان الثانى» أول رجل دين دعا إلى شن الحروب لاستخلاص الأرض المقدسة واستهل بذلك حركة الحروب الصليبية المعروفة ضد العالم العربى الإسلامى والمؤلف يضعه رقم ٥٠ فى القائمة، «والقديس أو غسطين»، صاحب نظرية «مدينة الله»، حيث لا وسيلة لخلاص الإنسان إلا عن طريق الكنيسة وحدها.. وأن البابا هو فوق الملوك والأباطرة، و «جون كالفن» الزعيم الفرنسى السياسى والدينى والمفكر اللاهوتى داعية الإصلاح الاجتماعى، «ولا تسو» الفيلسوف الصينى داعية التوافق مع الطبيعة، والذى كان كتابه «الطريق وقوته» مؤسسًا للديانة التاوية فى الصين فى القرن الرابع قبل الميلاد، و «مانى» مؤسس الديانة المانيشية فى القرن الثالث الميلادى، والتى تؤمن بأنه لا يوجد إله واحد وإنما الوجود صراع مستمر بين اثنين من الآلهة أحدهما قوة الشر الذى هو الظلام، وهو المادة والقوة الأخرى هى

الخير الذى هو النور والروح، وكلاهما على درجة واحدة من القدرة، «وزرادشت» مؤسس الديانة الزرادشتية فى إيران خلال القرن السادس الميلادى، والتى تقوم على وحدانية الله وتعدد الآلهة.. وتحول أغلب أتباعها إلى الإسلام بعد فتح إيران، و «ما هافيرا» الزاهد الهندى صاحب نظرية تناسخ الأرواح فى القرن السادس الميلادى.

أما بقية القائمة المائة فهى تضم الشخصيات الأخرى من قادة الفكر والفلسفة والأدب والفن والعلم والاختراع، ورجال السياسة والحرب وأبطال التحرير الوطنى.

وما أحسب أن هذه السطور التى جاءت هنا متوخية مجرد التعريف بأمشاج محدودة من مادة هذا الكتاب فيما يتعلق بالجانب الدينى منه.. ما أحسبها إلا مجرد دعوة فجرها الإعجاب لقراءة هذا الكتاب الموسوعى الحيوى الهام الذى قدمه لنا أنيس منصور إضافة لعطائه وتحقيقاً لمهمته.

على بن أبي طالب :
المبادئ .. فى مواجهة المصالح !!

لايكاد يعرف تاريخنا الإسلامى - على كثرة مامرّ به من أطوار ومتغيرات - رجلا من رجالات الإسلام وأفذاذه .. اعترضته عواتى المحن ، وحفت به تداعيات الفتن .. قدر ما تعرض خليفتنا الرابع الإمام العظيم على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، ومع شراستها وعتوها واجهها بجسارة الإسلام وأصالة المبادئ ، بما جبل عليه من خلق لايعرف التلون ، ومبادئ لاتعرف التذبذب ، وقيم لاتقبل المهادنة ..

وإذا كانت الدراسات المستفيضة قد تكاثرت عن إمامنا مؤرخة ومجتهدة سواء فى عصرنا أم فى عصور سالفة .. فإن رجلا فى مثل عظمته وفى مثل ظروفه لايمكن أن تستنفده أية كتابات مهما تعددت

فى الكثرة ومهما تباينت فى الاجتهاد والرؤية .

لقد كان ابن الإسلام وربيب الدعوة .. فى بيت النبوة استنشق الإسلام صغيرًا . وكان محمد المصطفى ﷺ هو رائده ، والقرآن هو أستاذه .

ومن هنا يأتى ترحيبنا بهذا الكتاب الجديد الذى أضافه الأديب الناقد الأستاذ مأمون غريب إلى مكتبة الفكر الدينى إثراء لحركة الاجتهاد حول الإمام الشهيد .. وإذا كان مأمون غريب يقف فى حركتنا الأدبية واحدًا من النقاد الجادين مواكبًا ومتابعًا وعارضًا .. فإن له أيضًا - بجانب هذا - إسهاماته المشهودة فى مجال الكتابات الإسلامية الجادة بما أصدره من كتب ودراسات حول الشخصيات الإسلامية المتفردة ويأتينا كتابه هذا « خلافة على بن أبى طالب » محاولة مشكورة لتقديم النموذج الإسلامى الأمثل فى مواجهة عصر ليس له غير الإسلام خلاصًا وحلاً وإنقاذًا .

وإذا كان الحيز لا يمكن أن يتسع لى هنا لتغطية كل جوانب هذا الكتاب الذى كتب بوجدان أديب وعقلية مفكر .. فلا أملك أمام غزارة مادته إلا أن أتوقف عند مشاهد من مواقف الإمام . أراها ضوءًا يهدينا إلى ماينبغى أن يكون عليه سلوك المسلم الجدير بانتمائه إلى هذا الدين الحنيف .

العظمة .. منذ الطفولة :

يقول لنا الأستاذ مأمون غريب محددًا منهجه فى الكتاب : « إنها محاولة آمل أن تكون واضحة المعالم والقسمات .. لاتنظر إلى الأحداث من خلال رأى مسبق .. ومن خلال هذه الدراسة التى أرجو أن تكون موضوعية سوف نرى صورة من أروع صور التاريخ الإسلامى وأكثرها تألقا .. وإذا كانت هذه الصورة قد أحيطت ببعض المغريات فإن الصورة نفسها ستظل - مهما كانت الظروف - مثالا لإنسان عاش حياته مجاهدًا بنفسه وبعلمه وبأولاده حتى ترتفع راية الإسلام .. وحتى ينتصر العدل ويشرق الأمل وتبزغ شمس الحقيقة مهما كان اتجاه الريح .

ومن خلال هذه الصورة المكثفة التى رسمها الكتاب أتوقف عند بعض الجزئيات ، وأول جزئية أتوقف عندها هى موقف من مواقف الإمام فى طفولته .. نحن نعرف أن الرسول ﷺ .. قد أقدم - اعترافا بفضل عمه أبى طالب - على كفالة ابنه على ليخفف عن العم المرهق أعباء الحياة ، وفى بيت الرسول تشرب الصغير قيم التوحيد منذ الطفولة .. وعندما استرعت انتباهه شعائر الإسلام التى يؤديها ابن عمه والسيدة خديجة .. انطلق يتساءل عن هذا المدهش الذى يراه ويسمعه .. وأخبره الرسول بجوهر الدعوة .. إنه الإسلام .. واقتناعًا بالشعائر وانبهارًا بالمبادىء ، عرض الصغير

على النبى إسلامه .. ويستمع الرسول إلى عرض الطفل العبقرى .. وكان لابد من السؤال .. هل أستأذن فى هذا الأمر والده ؟ وهنا تتبدّى عظمة هذا الصغير الذى نفذ الإسلام إلى أغوار وجدانه ، وأمده بالإجابة رائعة قاطعة عندما يقول :

« يارسول الله ماكنت لأسمح لأبى طالب أن أشاوره فى دينى فقد خلقنى الله ولم يشاوره فى خلقى » .

ألا تعطينا هذه الإجابة المنطقية المدهشة من هذا الصغير دلالة على مدى مافطره الله فى طبيعة هذا الإنسان من خصائص .. منها أن يسلك الطريق الذى يراه حقًا بمحض اختياره .. وإن الحقيقة عنده فوق كل اعتبار .

وجزئية أخرى من الصورة تقف أمامنا بكل دلالتها الباهرة . مات العم الرحيم ورحلت خديجة .. ذات القلب الحنون ، وتعرض النبى فى ثقيف للإهانة . وضاق بمكة الجاحدة ، واتخذ قراره استجابة لأمر ربه بأن يهاجر إلى يثرب حماية للدعوة الوليدة من سفهاء مكة ، وانديا حًا بها إلى مدى أرحب بعد بيعة العقبة .. وكانت مكة وساستها وأشرارها قد تآمروا عليه بقرار الاغتيال الجماعى حتى يضيع دمه بين القبائل كلها . وفى الليلة الموعودة قرر النبى الرحيل .. وطلب من على أن ينام فى فراشه ليتوهم الأشرار أن الرسول لم يبرح داره .. كان ابن العم يعرف أنها مهمة محفوفة بالخطر .. وأنه قد يواجه الموت لحظة أن يكتشف الأشرار الحقيقة

فماذا يمنع الغيظ ليلتها من أن يعربد جنونه وقد خابت الخطة وفشلت المؤامرة .. ولكنه المؤمن الجسور .. الفدائى بطبيعة كل مبادئه ماتردد ولا توجس قبل المهمة الخطرة وأفشل المؤامرة الدنيئة .. وبعدها دفعه الشوق اللاهب إلى يثرب حيث ابن العم الرسول الحبيب .. وامتطى الصحراء وحيدًا يسير على أقدامه أربعة عشر يومًا .. رفيقه الإيمان ، ونديمه الشوق ، فى مهامه الخطرة ..

وتمضى الدعوة المنتصرة فى مسارها تشريعًا وإعدادًا وجهادًا .. لتقف من جديد عند مشهد آخر من جزئيات الصورة .. حيث نرى الإمام توافقًا مع طبعه تواقًا إلى الفداء وإلى البذل لحماية كرامة الإسلام مهما كان الخطر .. إنه يوم الأحزاب .. وها هو ذا عمرو بن عبد ود المغرور يقف بكل صلف يتحدى فرسان المسلمين لمنازلته .. وكان له حقًا من تاريخه فى معارك الوغى مايخيف الفرسان .. وكان صلفه وغروره يستثيران فى علىٍّ نخوة الإسلام فيقف أكثر من مرة يستأذن الرسول أن يسمح له بمنازلته .. وكان الرسول يشفق على فتى الإسلام من بطش هذا المنازل العتيد الذى يزداد تعجرفًا كلما وجد القوم – يحجمون عن مقارعته .. ولم يعد فتى الإسلام وابن مبادئه يطيق صبرًا .. وأمام إلحاحه الملهوف وتوقه اللاعج دفع به الرسول إلى الساحة .. وتراود الفارس مشاعر الإشفاق على الفتى عندما عرف من هو .. فقد كان أبو طالب صديقًا له .. فيحاول أن يعيده وأن يثنيه عن عزمه فليس هو

بالراغب فى قتل ابن صديقه . ولكن فارس الإسلام بدلاً من أن يستجيب ويحجم ، يطلب من عمرو أن يعلن إسلامه عصمًا لدم صديق والده . وأمعن الغرور فى موقفه وانقشع تراب المعركة عن عمرو بن عبد ود وقد تخبط فى دمائه .. وعاد علىٌّ إلى صفوف المسلمين .. مجاهدًا بلا زهو .. فارسًا وهب للإسلام سيفه .. يشهد كل المعارك وتصبح فروسيته مصدرًا لحسم أغلب المواقف الصعبة .. وعندما يستخلفه الرسول على أهل بيته فى غزوة تبوك يحزن فارس المعارك ، ولكنه يمتثل لأمر الرسول عندما يقول له : « أما ترضى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لانبى بعدى » .

وخرجت أفاعى الفتنة من جحورها :

رحل الرسول صلوات الله عليه وسلامه بعد أن أكمل الدين وارتضى الله للبشرية الإسلام دينًا .. أذيعت وفاة الرسول .. وكان لابد أن يحسم أمر الخلافة بسرعة قبل أن يجد أعداء الإسلام الفرصة مواتية لبث الفرقة بين المهاجرين والأنصار .. وقد أوشكت الفتنة أن تطل فعلاً ومازال جسد الرسول الطاهر فى بيته لم ينتقل بعد إلى مثواه الأخير .. واستطاع أبو بكر الصديق والفاروق عمر رضى الله عنهما أن يعصما الإسلام من الفرقة .. واستقر الأمر بمبايعة الصديق خليفة للرسول كان الإمام لحظتها فى مهمة أخرى .. كان يجهز الجسد الطاهر لمهمة الرحيل .. غير واضع فى اعتباره ما يمكن

أن يحدث فى هذه اللحظة نفسها .. ولكن العباس عم رسول الله فطن إلى ما يمكن أن يحدث لحظتها والإمام غائب عن ساحة الأحداث خارج البيت الذى يضم جسد الرسول .. ويدنو منه العباس يعرض عليه أن يبايعه .. وكذلك سيفعل أبو سفيان .. وساعتها لن يختلف عليه أحد من العرب « فأنا إن بايعتك لايختلف عليك أحد من بنى عبد مناف . وإذا بايعك بنوعبد مناف لا يختلف عليك أحد من قريش .. وإذا بايعتك قريش لايختلف عليك أحد من العرب » .

كان الأمر بسيطًا أن يمد الإمام يده وينتهى الأمر .. ولكنه فى موقف آخر .. كيف يفعلها وجسد الرسول لم يجهز بعد لمثواه .. ويرد الإمام : « لنا بجهاز رسول الله شغل وهذا الأمر لايخشى عليه » إجابة يكمن فيها موقف رجل الأخلاق والمبادئ وعرف الحقيقة .. تألم حقًا لاعتقاده بأنه أحق الجميع بهذا الأمر .. ولكنه لم يشق عصا الطاعة واجه الأمر بالصبر واعتصم بوجه الله .

ومرت السنوات الزاهرة سنوات خلافة الصديق وأيام عمر من بعده وآلت الخلافة إلى عثمان .. ويأخذنا هذا الكتاب إلى رحلة فى قلب الأحداث التى اقترنت بولاية هذا الإمام الشهيد الذى قتل مظلومًا .. وبعدها برزت الفتنة برأسها تستهدف تدمير كل ماشاده بناة الإسلام .. خرجت الأهواء من مكامنها والمطامع من معاقلها .. وكانت الفرصة مواتيةلتصفية حسابات قديمة .. ودخلت السياسة –

كما يقول مأمون غريب – المعمعة .. سياسة تمسك علىٌّ فيها بشرف القيم .. واستخدمها الخصوم مكرًا ودهاءً وخديعة .

لم يكن الإمام غافلاً .. كان يعرف نوعية خصومه .. « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر .وأنا امرؤ لا أحب الغدر » .

وإليكم شاهدًا يبرز الفارق بين عظمة رجل الأخلاق والمبادئ ورجال السياسة والمصالح .. فى معركة صفين ملك عسكر معاوية مصادر المياه ، وانطلق الإمام يناشدهم الإسلام ليخلوا بين رجاله وبين الماء لإرواء عطشهم اللاهب .. وجاءه الرد وقحًا « لا والله ولا قطرة ماء حتى تموت من الظمأ » وحمل الإمام عليهم وأجلاهم عن مواقع تحكمهم فى مصادر الماء .. وأصبحوا يكابدون نفس الموقف .. وكان المنتظر – والبادى أظلم – أن يفعل مثلما فعلوا .. وكان رأى أصحابه أن يقتلهم بسيوف العطش بدلاً من سيوف الحرب .. ولكنها أخلاق الإسلام فقد أباح لهم المياه غير واضع فى اعتباره غير سماحة الإسلام بغير أن يتسرب إلى قلبه سعار الانتقام ، ويذكرنا موقفه هذا بموقف آخر بعد ذلك فى كربلاء يوم أن حمل الحسين الشهيد ولده يناشد الذين حاصروه شربة ماء لوليد يقتله الظمأ .. وأبى الحقد إلا أن يمعن فى السفالة فتدافعت غرائز الانتقام .

ونتابع المسيرة مع هذا الكتاب بعد أن بويع الإمام بالخلافة وتألبت عليه القوى المناوئة من مختلف الأغراض بما يجعل من هذا

الكتاب واجتهاداته وثيقة أخرى من وثائق هذه المرحلة ، ولكنى منذ البداية قلت لك إن مايعنينى أن توقف عنده هو أصالة المبادئ عند الإمام على ، هذه المبادئ التى أبت أن تتراجع أو أن تساوم مهما كانت مقتضيات السياسة بمفاهيم المنفعة .. كان كل مايتوخاه ويستهدفه مهما كانت الصعاب أن يعيد الناس إلى جادة الإسلام وأن يعيد للخلافة بهاء مجدها .. وكانت خطبته بعد الخلافة إشارة صريحة إلى هذا من إمام لايقبل فى دينه مراوغة .. هدفه الأوحد أن يعيد الناس إلى أيام النبوة حيث الطهر والنقاء كما يقول مأمون غريب ولنتوقف مرة أخرى عند جزئية من الصورة التى يرسمها هذا الكتاب لهذا الإمام . لقد أقدم الإمام غير هياب على عزل الولاة الذين توالت شكايات الناس منهم أيام عثمان .. ونصحه عمه العباس وكذلك المغيرة ألا يفعل .. فهؤلاء الولاة لهم نفوذهم فى الأمصار .. وسيكون العزل مدعاة إلى التأليب عليه فى وقت يحتاج فيه إلى الأنصار لا إلى مزيد من الخصوم .. ولكنه أبدًا لم يتردد . فما كان هو بالذى يقبل المداهنة .. لابد أن يعود أمر الناس لما كان أيام النبوة وكما تواصل أيام الصديق والفاروق ، حتى ولو اقتضى الأمر أن يقاتل الدنيا كلها .

• الحق والباطل .. يعرفان بأقدار الرجال :

يالها من أيام باهظة عاشها الإمام فى مرحلة يختلط فيها الحق

بالباطل .. وبين خصومه من يعرف الناس أقدارهم وتاريخهم فى نصرة الإسلام .. وإن الظلمة لتغشى المواقف وإن الغموض يحيط بالرؤية .. ويتجرأ أحد أنصاره ليسأله مستفسرًا وربما يكون الشك قد خالجه « هل يمكن أن يجتمع طلحة والزبير وعائشة على باطل ؟ » فى خاطر الرجل كانت الذكريات .. فهل يمكن أن ينسى الناس للزبير مواقفه الإسلامية الباهرة .. هل يمكن أن تغيب عن الذاكرة مواقفه وجهاده فى فتح مصر .. أليس هو الذى تسلق حصن بابليون غير عابئ بالرماة ليفتحه ويفتح الطريق إلى ضم مصر لحصون الإسلام .. وأليس طلحة هو الذى شلت يمينه وهو يتلقى السيف موقيًا منه – فى أحد – رسول الله ؟ وأليست عائشة هى أم المؤمنين وأحب نساء النبى إلى قلبه ؟ وأليس رسول الله ذاته هو الذى أوصانا بأن نأخذ نصف ديننا من هذه الحميراء ؟

وقد أصبحت من العناصر ذات الفعالية فى تأزيم الطريق أمام الإمام .. مدفوعة فى ذلك – كما تؤكد كل الاجتهادات التى تعرضت لهذه القضية – بالموجدة التى تضمرها لعلى لموقفه منها فى حادث الإفك عندما اتهمت افتراءً وسأل النبى صحابة الرأى فى أمرها قبل أن تنزل الآية الحاسمة بتبرئتها – فأشار الإمام بطلاقها .

ياله من سؤال صعب إذن .. فبماذا يجاوب عن سؤال مثل هذا .. بهدوء وحكمة قال لصاحبه : إنك لملبوس عليك .. إن الحق والباطل ليعرفان بأقدار الرجال .. اعرف الحق تعرف أهله .. واعرف

الباطل تعرف أهله » .

وفى ميدان المعركة يواجه الإمام الزبير وجهًا لوجه .. ويذكره الإمام بقولة الرسول للزبير إثر حوار بينهما يؤكد فيه الزبير حبه لعلى : « إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم » ويخفق قلب الزبير عندما يذكره الإمام بقولة الرسول فيقول : « أستغفر الله .. لو ذكرتها ماخرجت » وهنا يطلب منه الإمام الرجوع فيعترض الزبير بأن معنى انسحابه هو العار .. وهنا ينبرى رجل المبادئ ليقول :

« يازبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار » .

وانسحب الزبير ولكن عمرو بن جرموز اغتاله فى موقع يسمى وادى السباع وجىء للإمام بسيفه فطفرت الدموع من عين الإمام وهو يحضن السيف قائلا :

« سيف طالما دافع عن وجه رسول الله »

وتنداح الفتنة ويدلهم الأفق .. ويعاتبه ابنه الحسن وهو يمضى معه إلى البصرة لمجابهة الثوار .. يعاتبه على قبوله الخلافة بعد مصرع عثمان .. وإنه كان من الأفضل أن يرحل بعيدًا عن مواطن الفتنة وأن يترك الساحة خالية .. وأنه لو فعل لاضطر الجميع إلى مبايعته من تلقاء أنفسهم .

ويقول الإمام المكروب لولده : « لقد مات رسول الله ومأأرى واحداً أحق بهذا الأمر منى ، ثم بايع الناس أبا بكر فبايعته ، ثم إن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر منى فبايع

الناس عمر فبايعته ، ثم إن عمر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى فجعلنى سهمًا من ستة أسهم فبايع الناس عثمان فبايعته ، ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعونى طائعين غير مكرهين .. فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

فالإمام برغم اقتناعه المطلق بأحقيته بالخلافة بعد وفاة الرسول لم يسع أبدًا للسلطة عنوة وكان ملتزمًا ومطبقًا لمبادئ الإسلام فى أسمى صورها .. ونجد تأكيدًا لهذا فى رده على الذين عاتبوه - بعد الأحداث - على أنه أفلت الفرصة من يده بعدم مشاركته فى الأحداث التى جرت يوم السقيفة بعد وفاة الرسول .. فقد انبرى بكل عظمة رجل المبادئ والقيم يقول : « أفكنت أدع رسول الله فى بيته لم أدفنه .. ثم أخرج أنازع الناس سلطانه » عظيم أنت أيها الإمام فى كل الأحوال .. لو كان الإمام يتصرف بمنطق السياسة لانتقم من السيدة عائشة عندما انتصر فى موقعة الجمل - وكان دورها فى التأليب بالغ الخطر - ما راوده الانتقام بل أكرمها وزودها بما تحتاج إليه وأعادها إلى البصرة مكرمة ورافق موكبها لمسافة طويلة من الطريق

ولقد ندمت السيدة الجليلة بعد ذلك ندمًا شديدًا .. وعندما ألم بها الجزع ساعة الاحتضار دهش الذين حولها فما الذى يخيف أم المؤمنين وزوجة الرسول وابنة الصديق ولم يكتموا التساؤل فأجابت : « إن

يوم الجمل معترض حلقى » .

وانداح الظلام حوله ولكنه لم يفقد رؤية الحق وبصيرة رجل المبادئ .. ولكن الناس لم يعودوا هم الناس .. حتى أقرب الناس .. لك الله أيها الإمام وأنت تواجه الغدر بشعًا والدهاء متلونًا .. وماكنت بالعاجز .. ولكنك تتصرف بالمبادئ وغيرك يتصرف بأسلحة ليس بوسعك أن تستعملها ولو أردت لتمكنت .. فالكل يعرف مدى حنكتك وبصيرتك . والفاروق عمر يقول عنك : « لابقيت معضلة ليس لها أبو الحسن » ولكنها كانت مرحلة غريبة تحكمها قوانين الأهواء والمنفعة .. وماجدوى أن يكون القائد عبقريًا والرجال ليسوا هم الرجال .

هاهى ذى المحن تحيط بالإمام من كل جانب .. تمت مؤامرة التحكيم .. وتبعتها فتنة الخوارج والوهن يتسرب إلى قلوب الأنصار .. فحتى أخوه عقيل بن أبى طالب ينضم إلى معاوية عندما يرى شمس السلطة توشك أن تغرب من أفق عالم الإمام وابتغى الدنيا ماثلة فى ذهب معاوية .. وها هو ذا ابن عمه عبد الله بن عباس يستولى على أموال المسلمين فى البصرة ويهرب بها إلى مكة .. ووصلت المؤامرة إلى مداها .. فقد أشهر عبد الرحمن بن ملجم سيفه المسموم واغتال الإمام وهو فى طريقه إلى المسجد ينادى الناس كعادته فى الصبح إلى الصلاة .

وفى لحظاته الأخيرة أيضا تتجلى عظمة رجل المبادئ لآخر

رمق .. فقد قبضوا على القاتل الآثم ويأبى الإمام - منزهًا عن أحاسيس الانتقام - إلا أن يؤكد المبادئ فيقول لعشيرته : « أحسنوا نزله وأكرموا مثواه . فإن أعش فأنا أولى بدمه قصاصًا أو عفوًا .. وإن أمت فألحقوه بى أخاصمه عند رب العالمين ، ولاتقتلوا بى سواه ، إن الله لايحب المعتدين ، ولاتمثلوا به فإنى سمعت رسول الله يقول : إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

إنه رجل المبادئ حتى آخر رمق .. وعندما اشتد الضغط عليه ليوصى بالخلافة لابنه الحسن وأشهروا فى وجهه القول : ماذا يقول لربه إذا ترك الأمر بعده بلا رجل يخلفه فى مسئولياته ؟ أجابهم إجابة رجل المبادئ : أقول له : تركتهم دون أن أستخلف عليهم كما تركهم الرسول .. أخلاق الرسول تحتذيها حتى النهاية .. وباستشهاد الإمام غربت شمس الخلافة الراشدة .. ولكن يبقى الحلم .. وهذا الكتاب الذى قدمه الأستاذ مأمون غريب يضاف إلى جهود مخلصة تذكى الحلم وتلهب الشوق إلى أن يعود عالم الإسلام .. كما كان ذات عصر .

محمد إقبال :
الإسلام هو سرّ عبقريته !

تشهد أمتنا الإسلامية ذكرى رحيل رجل عظيم من أفذاذ رجالات الإسلام فى العصر الحديث هو الفيلسوف والمفكر والشاعر محمد إقبال . الذى لعب- فضلاً عن ريادته لفكرة الدولة الإسلامية فى شبه القارة الهندية - دورًا حيويًا فى تجديد الفكر الإسلامى ، وتمكنت عبقريته الموهوبة من سبر غور الإسلام واكتشاف مدى قابليته المطلقة لأن يقدم الخلاص لإنسان العصر ، والتوافق مع توقه إلى كل ما هو خير وجميل وحق ..

ومهما تباينت وجهات النظر فى مصادر عبقرية إقبال وتفرده مجاهدًا سياسيًا ومفكرًا إسلاميًا ، وشاعرًا صوفيًا .. فهناك حقيقة مؤكدة هى أن الإسلام الذى رباه وألهمه وفجر طاقات الإبداع

فيه .. منذ أن تشربه صغيراً والتحم به فى منابعه وأصوله وامتداداته .. هذا الإسلام هو سر عبقريته .. ومن رحابته وعمقه انطلقت هذه العبقرية إلى آفاق العطاء المتفوق والإبداع السامق.

كتاب يواكب الذكرى:

وبمناسبة هذه الذكرى وبرغم رحيل إقبال عن دنيانا فى ٢١ أبريل عام ١٩٣٨ ، فإن أفضل ما نقدمه فى ذكراه أن نعرض لكتاب هام صدر مؤخرًا بعنوان «العلامة محمد إقبال .. حياته وآثاره» للدكتور أحمد معوض . ويعد هذا الكتاب أحد أهم المصادر الضافية التى أدخلتنا عالم إقبال من جميع مناحيه وآفاقه وامتداداته.

يقول لنا المؤلف الدكتور أحمد معوض : عرفت إقبال والتقيت به مرارًا وتكرارًا .. عرفته فى كل أثر من آثاره الفنية ، وفى كل بيت قرأته له ، بل فى كل خلجة اعتملت فى نفسه وسجلها ببراعة . وفى كل نبضة تجلت آثارها على صفحات أعماله ، رأيته فى كتابات عديدة بلغات مختلفة ، وفى مجالات عريضة شتى .. والتقيت به فى أعماق كل باكستانى ، فضلا عن جموع المسلمين فى كل مكان.

يحدثنا المؤلف فى الكتاب عن مولد إقبال فى سيالكون إحدى مدن إقليم البنجاب الغربية ، حيث أن تاريخ ميلاده المعمول به هو الثالث من ذى القعدة عام ١٢٩٤ هجرية الموافق التاسع من نوفمبر عام ١٨٧٧ ميلادية . ولكن المؤلف يورد لنا بعد ذلك عدة آراء حول

تاريخ ميلاده تتعارض مع التاريخ المعمول به، إلا أنه ينهى الجدل فى ذلك بقوله: «وأيا كان تاريخ مولد إقبال فإن هذا الاختلاف ينحصر فى بضع سنوات لا تزيد على عدد أصابع اليد ولا يقدم ولا يؤخر كثيرًا فى موضوع بحثنا».

قلنا فى مقدمة هذه السطور إن عبقرية الإسلام الشاملة هى التى تقف وراء عبقرية إقبال الفردية المتفردة وعندما نجوس خلال صفحات هذا الكتاب تتبدى لنا هذه الحقيقة ماثلة فى اعتراف إقبال ذاته.. فها هو ذا يقول - ردًا على سؤال توجه به إليه العلامة السيد سليمان الندوى عن سر بلاغته التى تكشفت معها غوامض الدين ومعالم الحق، وأوصلته إلى الذروة فى أساليب التعبير التى ندر أن يصل إليها أهل الفقة والعلم - يرجع الفضل فى كل ما أنشأته من شعر أونثر إلى توجيهات أبى رحمه الله، فقد عودنى تلاوة القرآن الكريم بعد صلاة الصبح من كل يوم، وكان كلما رآنى سألنى عما أفعل فأجيبه بأنى أقرأ القرآن الكريم.. وإذ كان يعاود إلقاء هذا السؤال فى صبيحة كل يوم وأجيبه نفس الجواب.. فقد دفعنى الفضول والضجر إلى أن أقول لوالدى يوماً.. ياوالدى أنت ترانى أتلو كتاب الله فلم تسألنى هذا السؤال وأنت تعلم جوابى..؟ فقال رحمه الله بل أردت أن أقول لك اقرأ القرآن وكأنه نزل عليك.. ومنذ ذلك الوقت بدأت أتفهم القرآن وأقبل على دواخل كلماته ومعانيه فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت».

يالها من دلالة عميقة تلك التى تكمن فى هذه الكلمات..

الإسلام من جديد:

مع هذا الكتاب نصاحب إقبال فى كل أطوار حياته المتباينة من حيث النشأة والأسرة والتعليم والثقافة، إلى أن يصل إقبال إلى مرحلة التعليم الجامعى فى الهند، وإحرازه الدرجات المرموقة فى امتحاناته خصوصًا فى اللغة العربية خلال دراسته فى جامعة البنجاب، حيث اهتم به أساذه الدكتور توماس أرنولد أستاذ الفلسفة الحديثة، الذى كان حجة فى آداب العرب والعلوم الإسلامية، ولقد اتسم كتابه «دعوة الإسلام» بالإنصاف للدعوة الإسلامية، واجتهد فى نبرئتها مما حاول رجال الاستشراق أن ينسبوه إليها من مفتريات مغرضة.. وعندما غادر الأستاذ الهند إلى أوربا عام ١٩٠٤ تأثر إقبال برحيله، وكتب قصيدته «أنين الفراق» التى عبر فيها عن مدى إكباره لأستاذه وحبه له، وفيها يقول:

«أيتها الدار لقد تركك شاغلك نهائيا وجعل الغرب داره، فآه لأن أرض المشرق لم تعجبه، لقد أصبح قلبى مؤمنًا الآن بصحة القول: إن ضياء نهار الفراق ليس بأقل من ظلمة الليل».

ثم نصاحب إقبال بعد ذلك فى رحلته إلى أوربا طلباً للعلم.. ثم نراه شاعرًا ومحاضرًا طبقت شهرته الآفاق، تتسابق عليه الدول والمحافل ليحاضر عن الإسلام.. ولقد جمع هو هذه المحاضرات بعد ذلك وضمنها كتابه «إعادة بناء الفكر الدينى فى الإسلام»، وقد

التقى بمشاهير العالم من الساسة والمفكرين.. وعندما التقى بالفيلسوف الفرنسى برجسون عام ١٩٣١ فى باريس وكان عائدًا من مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن، كان برجسون وقتها يعانى شدة المرض، ولكنه رحب باستقباله وطفق يناقشه فى الفلسفة وفى الإسلام، وعندما تطرق الحوار إلى الزمان ومدلول فلسفته فى الإسلام عرض إقبال للحديث الذى يقول: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»، وهنا قفز برجسون مدهوشًا مبهورًا كأنما اكتشف الحقيقة..

لقد كان الدفاع عن الإسلام وشرح مبادئه وأنه تجربة اجتماعية عمدت إلى إزالة رابطة الدم كمبدأ للوحدةالاجتماعية.. هى المهمة التى أخذها إقبال على عاتقه محاضرًا ومفكرًا وشاعرًا.. كما كان من أهم فلاسفة الإسلام الذين برهنوا على أن التصوف ليس معناه الاستكانة وإنما هدفه اكتساب القوة وتنمية الذات.

وإذا كان إقبال قد أبان عن كون الإسلام هو طوق النجاة للإنسانية كلها، فمن هذا المنطلق كانت دعوته لتجميع الشعب المسلم فى الهند تحت راية دولة موحدة.. وهذا ما جعله يعكف على التاريخ الإسلامى فى الهند ليقنن أطواره ويستوعب تجربته ليتخذه منطلقا إلى دعوته فى تخليص شعبه المسلم مما يعانيه من اضطهاد.. لقد كان الإسلام عريقًا فى الهند منذ أن قدم إلى هناك محمد بن القاسم الثقفى زوج ابنة الحجاج حاكم العراق على رأس الجيش

الإسلامى عام ٩٣ هجرية ومن وقتها حملت السند لواء الإسلام فى شبه القارة حتى سلمته إلى دولة باكستان الإسلامية عام ١٩٤٧، وإذا كان الموت لم يتح لإقبال أن يشهد مولد الدولة التى دعا إليها وبلورها اتجاهًا سياسيًا بعد أن كانت حلماً وجدانيًا، إلا أن روحه فاضت ودعوته على مشارف تحقيقها.. وكان يشعر بنبض شعبه المسلم وهو يلتف مجاهدًا من أجل تحقيق الفكرة الحلم.

لقد كانت البداية ماثلة فى صيحته غداة انعقاد مؤتمر جامعة مسلمى كل الهند فى ديسمبر عام ١٩٣٠ وهو يبشر: «إننى أود أن أرى البنجاب وإقليم الحدود الشمالية الغربية السند وبلوخستان متحدة فى دولة واحدة. ويبدو لى أن تكوين دولة موحدة مسلمة هندية فى الشمال الغربى تحكم نفسها حكماً ذاتيًا فى داخل الإمبراطورية البريطانية أو خارجها هو المصير النهائى للمسلمين على الأقل فى شمال غربى البلاد».

وكانت صيحته هى التى تفجرت فى اتجاه عارم وتبلورت فى مطالب الجامعة الإسلامية عام ١٩٤٠، وعلى أساس ماعبر عنه قامت دولة باكستان ترفع علم الإسلام عام ١٩٤٧ بقيادة المجاهد والقائد الأعظم محمد على جناح.

طاغور يتحدث عن إقبال:

وظل إقبال طيلة حياته لا يكف عن الدعوة الإسلامية، بوجدان

الشاعر ، وعقل المفكر ، ورؤية الفيلسوف ، إلى أن لقى وجه ربه فى ٢١ أبريل عام ١٩٣٨ ، ودفن فى الساحة الخارجية لمسجد بادشاهى بلاهور ، وأقيم ضريحه على الطراز المغولى ، وأصبح مزارًا للآلاف من أحباء إقبال وعشاق شعره .. ولقد اهتزت الدنيا يومها لرحيله ، ولا يجد المؤلف الدكتور أحمد معوض تعبيرًا عن الهزة التى أحدثها موته أبلغ من كلمات طاغور شاعر الهند حيث يقول :

« لقد خلقت وفاة إقبال فى أدبنا فراغًا أشبه بالجرح المثخن الذى لن يندمل إلا بعد أمد طويل .. إن موت شاعر عالمى كإقبال مصيبة تفوق احتمال الهند .. » ثم يردف : « إن مرجع ما أصاب شعر إقبال من ذيوع وانتشار بلا ريب إلى ما فيه من نورانية الأدب الخالد وعظمته .. »

آثار العلامة إقبال :

إذا كان هذا الكتاب قد غطى لنا عالم إقبال ، مصحوبة هذه التغطية بالدراسة والتحليل واستخراج كنوز فكره وشعره ومتابعة وتقويم جهاده وكفاحه ومراحل حياته والمؤثرات التى أحاطت بها .. فهو يتوقف بنا بعد ذلك فى جولة مع « آثار العلامة إقبال » ليعرفنا راصدًا ومحللًا لكتبه فى الاقتصاد والتربية والتاريخ والفلسفة والشعر ..

ومن أهمها كتابه « تطور الغيبيات فى فارس » وهى الرسالة التى

حصل بمقتضاها على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة ميتشين الألمانية .. والكتاب يناقش ويعرض لقضايا الثنائية الفارسية والعقلية الإسلامية والتصوف ، والصراع بين الواقعية والمثالية وغير ذلك من قضايا الإسلام والفلسفة بوجه عام .. وكذلك يأتى من أبرز هذه الآثار ديوانه « أسرار الذات » ، الذى نظمه بالفارسية .. ويذكر مؤلف كتابنا الدكتور أحمد معوض أن إقبال فى مقدمة الطبعة الأولى لهذا الديوان قد انتقد حافظ الشيرازى انتقادًا لاذعًا ، ولكنه - وقد أعاد النظر بعد ذلك فى انتقاداته تلك على ضوء الاعتراضات التى واجهها من والده وغيره من الأصدقاء - حذف ما جاء فى المقدمة عندما أعاد طبع الديوان بعد ذلك .. وعن هذا الديوان يقول الدكتور أحمد معوض : « وفى أسرار خودى (الذات) » يثبت إقبال بوسائل شتى أن الكون كله يخضع لإرادة الذات ، وأن عشق الذات يسود كل شىء فى هذا العالم وما وراءه ، ويدين إقبال تدمير الذات ولكنه بعد تحقيق الذات ومعرفتها هدف الحياة ، وتوضيحًا للطريق الذى يقود إلى الذات يعرفنا ، إقبال بالمراحل التى ينبغى أن تمر بها النفس قبل أن تصل فى النهاية إلى ذروة الكمال .. ومن ثم يتمكن العارف بالذات أن يصبح بحق « خليفة الله على الأرض » .

وفى نفس الأهمية يقف ديوانه « رموز الذات » ، وكما يقول الدكتور أحمد معوض : وقد يبدو لأول وهلة أن هذه الأشعار تتناقض والمجموعة الأولى - أسرار الذات - إلا أنها فى الواقع

تفسير وتوضيح لنظرية إقبال عن الذات، ومن ثم فقد ضم القسمان في مجلد واحد بعد ذلك بحيث تتكامل النظرة الفلسفية التي أرادها الشاعر ليثبت أن الطريق الإسلامي للحياة هو أفضل أسلوب لحياة الأمة ونموها وعلى المرء أن يحفظ خصائصه الفردية منفصلة إلى حد معين حتى إذا ما تحقق ذلك فعليه أن يضحي بفرديته من أجل رفاهة أمته».

أما ديوان «رسالة المشرق» الذي جاء بعد قرن كامل من ديوان «جيته» الشرقي الذي حمل فيه على مادية الغرب مستشرقاً الخلاص في رسالة روحية تأتي من الشرق.. فإن إقبال يوضح الهدف من ديوانه بقوله: «وقد نهض الشرق والمشرق الإسلامي خاصة من سبات دام عدة قرون. إلا أن على أمم الشرق أن توقن أن الحياة لا يمكن أن تحدث ثورة في محيطها حتى تقع أولا ثورة في أعماقها، وأنه لا يمكن لعالم جديد أن يتحقق ويبرز ما لم يكن قد توصل العقل البشري إلى شكل له. وهذا القانون الثابت للطبيعة، الذي يشير إليه القرآن الكريم ببساطة وبلاغة بقوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، يغطي الجانبين: الفردي والجماعي، ولقد حاولت في أعمالي بالفارسية أن أبرز هذه الحقيقة المؤكدة».

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن قمم آثاره مثل «رسالة الخلود» الذي يقول عنه المؤلف: «إنه من أروع أعماله بالفارسية

حيث يمتزج التصوف بالفلسفة بالتاريخ، وحيث نرى جلال الدين الرومى يقود إقبال فى معراجه بين عدة سماوات، إلى أن يصبح على صلة بالأنوار الإلهية. وفى خلال معراجه ما بين الأفلاك وما وراءها، يلتقى بعدد من الشخصيات المرموقة من الفلاسفة والساسة والملوك والمتصوفة والشعراء، من القدامى والمعاصرين.. ومن خلال الحوار معهم تبرز مشكلات العالم والاجتهادات من أجل إيجاد حلول لها».

ومن خلال عرض المؤلف لهذا الأثر الجليل يتصدى لما روجه بعض المستشرقين من أن إقبال قد نهج فيه نهج دانتى اليجيرى فى الكوميديا الإلهية.. وقد فند المؤلف ذلك لأن تصفح تاريخ الأدب الإسلامى فيه رد كاف على هذا القول ولعل مرجع فكرة البحث عن الحق لدى المفكرين المسلمين إلى معراج الرسول الكريم إلى السماء وما رآه خير الأنام فى هذه الرحلة الفريدة من مشاهد عديدة، أثارت خيال الأدباء المسلمين، وشحذت فكرهم وجعلت بعضهم يسجل تخيلاته وتصوراته بصور أدبية شعرًا كانت أم نثرًا.. وبعد أن يورد المؤلف أسماء بعض هؤلاء مثل: البسطامى، وابن عربى، والمعرى، وابن سينا، والعطاء، يعود ليحسم القضية بقوله: «أضف إلى ذلك أن البحث العلمى المجرد يكشف عن أن منظومة دانتى ذاتها إنما تستمد مادتها الأصلية من المصادر الإسلامية».

رسائل إقبال .. ثم دفاع عن عبقريته :

إذا كان هذا الكتاب البالغ الأهمية قد غطى - كما قلت - كل جوانب حياة إقبال، فقد وجد المؤلف الدكتور أحمد معوض أن العرض لبعض رسائل إقبال التى كتبها لبعض الشخصيات - أمثال القائد الأعظم محمد على جناح، والمهراجا كرشنا برساد، والشاعر كيرامى، والسيدة عطية بيكم وغيرهم - يمكنها أن تلقى ضوءًا يساعد فى الرؤية حول حياة إقبال ومواقفه السياسية، ومشاعره العاطفية، وأنها ذات قيمة كبرى فى هذا المجال.

ثم يأخذنا المؤلف بعد ذلك إلى جولة شاسعة فى فكر إقبال وقلبه، عارضًا ومحللا ومقننًا بما يجعل من هذه الجولة متعة روحية وعقلية بالغة .. ثم يتصدى بعد ذلك للمقولات التى حاولت تأصيل معطيات إقبال بإرجاعها إلى أصول غربية أو شرقية .. منتهيًا إلى حقيقة أن إقبال قد تداخلت فيه الثقافة الإنسانية تراثًا ومعاصرة، وإنه قد هضم كل ذلك واستوعبه .. إلا أنه كان هو ذاته من خلال كل هذا مضيفًا أصالة عبقريته ووهج شاعريته وعمق رؤيته .. بخصائصها وسماتها وجوهرها .. بما سيكفل له الخلود علمًا متفردًا بين شوامخ الفكر والشعر وعظماء التاريخ.

وأخيرًا تحية إلى هذا الكتاب الذى يأتينا مرجعًا متميزًا من أهم المراجع حول هذا العظيم الخالد .. مفخرة الإسلام .. محمد إقبال.

ابن حنبل .. موقف فى مواجهة الخطر

كلمة حق :

قالها الإمام أحمد بن حنبل ، لتكون مثلا على ما ينبغى أن يكون عليه رجل الفكر والاجتهاد ، لم يقلها لمريديه من حلقة درسه وهو يتسريل بالأمان .. بل قالها والخطر يحدق به .. والموت يتهدده .. قالها والسيف فوق رأسه والقيد فى رجله والسياط تنهال على جسده الواهن الضعيف .. ولكنه الإسلام يعطى الرجال استهانة بالخطر .. وتوقًا إلى الشهادة فى سبيل الله .

إن تاريخنا الإسلامى يمتلئ بنماذج من العظمة والبطولة .. والمواقف الشريفة .. هذه النماذج المفكرة والمجاهدة ، يجب أن نعمل على تقديمها لشبابنا حتى يعتز بتاريخه وينافح عن تراثه . ويصنع

المستقبل والحاضر من هذا .. وحتى لا تسطو عليهم مقولات مغرضة تحاول تشكيك الشباب فى تراثه وصرفه عنه .. وبعد ذلك يصبح مفرغًا وجاهزًا لأن تصب فيه بعض الأفكار المنافية لدينه وتراثه وعروبته .

وهذا الإمام العظيم أحمد بن حنبل يقف بجهاده شاهدًا على عظمة مفكر إسلامى أبى أن يرضخ لغير ما يؤمن به ويعتقده فى مواجهة سلطان متعنت عنيد .. لا يكتفى أن يؤمن بمقولة خلق القرآن التى أدخلها بعض رجال المعتزلة على عقله .. بل يريد أن يفرض وجهة نظره بقوة السلطة .. ويريد من علماء المسلمين اعترافًا بها ، وإلا فالسيف هو الحكم .. وتنكر المأمون لمواقف سابقة له من أجل حرية الفكر ، ونسى قوله : « غلبة الحجة أحب إلى من غلبة القوة .. لأن غلبة القوة تزول بزوالها .. أما غلبة الحجة فلا يزيلها شىء ! » .

وإذا كان البعض من العلماء قد تذرع بمنطق التقية أو التأويل هربًا من بطش المأمون بكل من لم يقل بخلق القرآن .. ولكن أحمد بن حنبل رفض هذا وواجه المحنة معبرًا عن ضمير الأمة وإيمان الجماعة من مواجهة الفكر المعتزلى التى كانت مقولة خلق القرآن واحدة من قضاياه التى أثار حولها الجدل والكلام .. وهناك من يرى أن فكرة خلق القرآن لم تكن اجتهادًا معتزليًا ، بل تسربت من اليهود أصلا فى محاولاتهم الدائبة للدس على الإسلام من داخل

ناسه .. رفض أحمد بن حنبل هذه البدعة متمسكًا بأصالة الشريعة ونقاء السنة .

وسيق الإمام الزاهد ليواجه المأمون فى دار الخلافة .. مقيدًا على بعير واحد مع تلميذه الورع محمد بن نوح .. وفى الطريق إلى « طرسوس » يسمع من يقول له « ألا ترى الباطل كيف ظهر على الحق » ، ولكنه بمنطق المؤمن المجاهد يفند هذا الرأى قائلا : « كلا إن ظهور الباطل على الحق ، أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة .. وقلوبنا بعد لازمة للحق » .. وفى الطريق عند « الأنبار » يقدم إليه أبو بكر بن الأحول يريد أن يطمئن قلبه وقلوب الأمة التى تنتظر النتيجة خائفة أن يضعف الإمام يقول له ابن الأحول : « هل لو عرضت على السيف تجيب » .. ويرد الإمام « والله أبدا » ، كانت الأمة بأسرها تضع يدها على قلبها مخافة أن يتسرب إغراء « التقية » إلى قلب الإمام وكانت ترى فى صلابته وقاية للأمة من الفساد .. وما أصدق كلمات هذا الأعرابى الذى لحق به يقول : « إن يقتلك الحق مت شهيدًا ، وما أصدق أيضًا كلمات أبى جعفر الأنبارى ، يلقاه بعد أن عبر نهر الفرات فيقول : « أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك .. فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله .. ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ولابد من الموت .. فاتق الله ولا تجبهم بشىء ، وفى الطريق إلى دار الخلافة يموت صاحبه رفيق القيد والشريعة والطريق محمد بن

نوح عند «الرقة»، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة يقول لصاحبه الإمام: «يا أبا عبد الله إنك لست مثلى.. أنت رجل يقتدى به.. وقد مد الخلق أعناقهم إليك فاتق الله واثبت لأمر الله».

ما أروعه إيمان الرجال.. وما أعظمها فطرة الإسلام.

وجاء الخبر بوفاة المأمون.. ولكن لا فكاك.. المحنة تمضى إلى غايتها فالمأمون سكب وصيته للمعتصم، بأن يقتدى به فى مسألة خلق القرآن.. وتمر الشهور على ابن حنبل فى سجنه فى انتظار مواجهة الخليفة الجديد.. ويقول له عمه: «لماذا لم تجبهم بما يحبون «تقية».. فيردد من جديد قولته: «إذا أجاب العالم «تقية» والجاهل بجهل فمتى يظهر الحق؟».

ويأتى إليه فى السجن من رجال حاشية الخليفة من يناظره.. وأمام حججه وصلابته يخرجون تدفعهم الهزيمة والإحباط إلى مزيد من الأغلال يضيفونها إلى قيوده.. وقالوها له بصراحة أنه لن يقتل مرة واحدة بضربة سيف فيستريح ولكنه الضرب والتعذيب حتى يلفظ أنفاسه.. وحملوه وهو إمام الأمة مصفدًا فى الأغلال على دابة يكاد من وطأة الأصفاد يسقط على وجهه، وفى دار الخلافة ألقوه فى قبو مظلم.. وفى الغد أدخلوه على المعتصم وكان الجو مشحونًا بالإرهاب حوله.. السيوف فى قبضة الحراس.. والسياط فى أيدى الزبانية، والجلادون متأهبون.. كان المطلوب أن ينخلع قلبه ويطير لبه ويفقد جنانه فيجيب.. ويقول له المعتصم محاولا الملاينة والإمام

فى قيوده ويتعثر وهو يدنو منه بناءً على أمره :

« لولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى ما عرضتك »، ثم يأمر رجاله بأن يناظروه وأمام حججه الدامغة ومنطقه المضئ ، لا يجدون إلا البذاءة يقذفونه بها ، وهو يردد : أعطونى شيئًا من كتاب الله .. وينطلق ابن داود قاضى القضاة يحرض الخليفة عليه .. ولكن المعتصم يطلب منهم الاستطراد فى مناظرته عسى أن تهزمه الحجة .. ولكن كيف والإمام عالم لن يغلبه منطق الأدعياء .. ويحاول ابن داود أن يتحدث إليه فيشيح عنه الإمام بوجهه ، وعندما يطلب منه المعتصم أن يرد على رجله يقول : « لا أعرفه من أهل العلم فأحدثه » ويطول الجدل والإمام يأبى أن يقول بغير ما يراه الحق ، ويحاول المعتصم أن يغريه : « والله لئن أجابنى لأطلقن منه يدى .. ولأركبن إليه بجندى ، ولأطأن عقبه !! » وتستمر المناظرة والإمام صامد .. ومن جديد يقول المعتصم : « يا أحمد أجبنى إلى شىء فيه أدنى فرج لك ، أطلق عنك يدى ولكن لا جدوى ، فكيف يقر الإمام بدعة يراها تحمل الإفساد إلى الدين الحنيف .. وضاق صدر المعتصم فى النهاية وقالها : « عليك اللعن .. خذوه واسحبوه وعلقوه » .. فاقتيد الإمام وعلقوه من قدميه ووجهه الكريم يكاد يلامس التراب .. والسياط تنثال على جسده .. والجلادون يتداولون .. والمعتصم يأمرهم الإمعان فى الضرب والتشديد فيه .. والإمام يردد قوله : « أعطونى شيئًا من كتاب الله .. فى مواجهة البطش يقولها .. كلما

أهبت السياط ظهره يرددها .. والدماء تغرق ثوبه ، ولكنه لا يكف عن ترديدها كل هذا التعذيب والشيخ صامد .. من أجل الله يحتمل .. وفى سبيل الله ما يكابد .. ويفقد الوعى من فرط العذاب .. وينزلونه ثم يلقونه على وجهه ويدوسون ظهره .. وعندما يستفيق من الإغماء بعد أن نقلوه إلى دار إسحاق بن إبراهيم ، يصلى وجراحه تنزف دماء .. وعندما يقول له ابن إسحاق لقد صليت والدم يسيل من ثوبك يرد عليه بقوله : « لقد صلى عمر وجرحه يشخب دمًا » .

وخلال عملية التعذيب المروعة لإمام من أطهر أئمة الأمة كانت الأمة خارج الأسوار وهى تضرع بالدعاء أن يثبت الله جنانه .. وثبت الله جنانه . وفى مواجهة العذاب يصف لنا أحد شهود العيان من رجال شرطة المعتصم المشهد بعد ذلك فيقول : « ما رأيت أحدًا أثبت قلبًا من أحمد يومئذ .. وما نحن فى عينيه إلا كأمثال الذباب » ، واقترب منه خلال التعذيب من يشفق عليه فنصحه بأن يجيب ، فيقول الإمام والسياط تنهال بضراوة على جسده وهو يومئ إلى الجموع المحتشدة خارج الأسوار : « أقتل نفسى ولا أضل هؤلاء كلهم » ، ولا يجدون فى النهاية مناصًا من إطلاق سراحه .. وعاش زاهدًا يرفض أن يمد يده إلى مال السلطان .. ويظل يجتهد ويمضى فى إعداد « مسنده » ، وهو يقتات من عرق جبينه ، وآثار التعذيب ماثلة فوق ظهره حتى يوم مماته .. ولكنه مع ذلك لا يعرف

لقد ويأبى حتى أن يدعو على ظالميه .. وعندما طلب منه أحد أتباعه أن يدعو عليهم أجابه بقوله : « ليس للصابر من دعاء على الظالم » وفوق هذا يخطر له أنه ربما يأتى يوم تفكر فيه الأمة للانتقام من الذين عذبوه فيقول لابنه : « أنا أهون على الله عز وجل من أن يعذب فىَّ أحد » ، يالها السماحة والعظمة والنبل .. إنها أخلاق الإسلام .. أخلاق رجل القرآن .

ولكنه إذا كان يتنازل عن حقوقه غفرانًا وسماحة .. فإنه يأبى أن يتنازل عن حقوق الله .. فقد عاش حياته بعد ذلك مقاطعًا كل الذين قالوا بخلق القرآن .. وأبى أن يمشى فى جنازة أحد منهم .. وبعض هؤلاء أشاد بعد ذلك بموقف الإمام وصموده هذا الذى عصم الإسلام من الفتنة ، فها هو ذا على بن المدينى أحد الذين سايروا الزعم بخلق القرآن « تقية » ، وقال للذين لاموه على ذلك « ماأهون السيف عليكم » .

أنها ملحمة الصمود الإسلامى يمثلها هذا الإمام الجليل .. وبعد كل هذا أدعوك إلى قراءة هذا الكتاب « أحمد بن حنبل - إمام أهل السنة » .. للكاتب والمفكر الإسلامى الجليل الأستاذ عبد الحليم الجندى .

بانت سعاد ..
قصيدة إيمان وحب .. لا «تقية» وخوف !!

هناك فى تاريخنا الأدبى ثمة أحكام شائعة .. أعطاها التواتر صفة المسلمات المطلقة .. ولابد من إعادة النظر فى هذه الأحكام على ضوء المنطق المنبثق من الاستقراء بعد طرح القضايا التى شاعت بشأنها هذه الأحكام الجاهزة .. أقول هذا لأننى عندما كنت أتأهب لإعداد كتابى (البوصيرى المادح الأعظم للرسول) ، اقتضانى ذلك أن أعود من جديد لقراءة قصائد المديح النبوى التى امتلأ بها ديوان الشعر العربى منذ إشراق الرسالة المحمدية حتى عصرنا الحديث ، حيث تطالعنا عشرات القصائد الرائعة من حيث الإيمان ، والمتفوقة من حيث الشاعرية .. فالحقيقة أن هذه القصائد من أنقى أشعار المديح .. لأنها كانت قصائد متجردة من الغرض ، معصومة من

المآرب والهوى .. ولا تستهدف غير الحق خالصًا بتمجيدها للنبى ﷺ تمجيدًا للإسلام قبله .. ولست هنا بصدد هذا .. ولكنى بصدد ما ذكرته فى البداية عن الأحكام الشائعة فى أدبنا ، التى أخذت بالتواتر صفة المسلمات وأتوقف عند مسألة محددة .. فقد استوقفتنى خلال الإعداد للكتاب الذى ذكرته وجهة نظر شائعة تزعم أن كعب بن زهير أنشد الرسول لاميته المعروفة (بانت سعاد) - تلك التى كانت أول قصيدة عربية أطلقت عليها تسمية (البردة) ، لأن الرسول خلع عنه بردته ووهبها للشاعر بعد أن فرغ من إنشاده - بدافع الخوف من القتل .. وأنه أنشدها بدافع هذا الخوف تزلفًا يستهدف النجاة بغير إيمان صادق ساقه إليها .

ولست أدرى كيف تواتر هذا الزعم .. فمن جهة ليس بين الرسول وبين أحد خصومة ذاتية ، إلا فيما يتعلق بالعداء للإسلام أو المناهضة له .. وهؤلاء المعادون والمناهضون بينه وبينهم كتاب الله هو الحكم وهو الفيصل .. سواء أكان الأمر إدانة .. أو جاءت النتيجة تبرئة .. أو عفوًا إذا ما أعلنت التوبة وبادرت الشهادة .. ومن جهة أخرى فسياق القصيدة يغاير هذا .. يغاير الزعم بأنه شاعر هدد بالقتل .. وأرعبه هذا التهديد فهرع يسوق المديح « تقية » وزلفى .. وفى كتاب (المدائح النبوية فى الأدب العربى) ، نجد الدكتور زكى مبارك يساير هذا الزعم الشائع فيقول عن قصيدة (بانت سعاد) .

(وقد نظرت طويلا فى هذه القصيدة فلم أر غير أنها قصيدة جاهلية تغلب عليها قوة السبك، ولكنها تكاد تخلو من روح الدين. ولا غرابة فى ذلك فإن كعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت.. ومن كان فى مثل حاله لا ينتظر منه صدق الثناء..)

كيف شاع هذا الحكم الصارم عن هذه القصيدة حتى عصرنا الحديث.. فلا هى قصيدة وليدة خوف.. ولا هى تخلو من روح الدين.. ودوننا ملابسات القضية ودوننا القصيدة ذاتها.. وكلاهما يدفع بما يغاير هذا الحكم. فحقيقة الأمر أن الشاعر قد أوفد أخاه (بجير) فى مهمة استطلاعية إلى حيث يقيم الرسول صلى الله عليه وسلم، ليكون عن كثب من النبي ليأتيه بالخبر اليقين عن هذا الدين الذى أصبح حديث الجزيرة بأسرها.. إذن فمنذ البداية كان موقف الشاعر هو موقف الباحث عن الحقيقة.. لدرجة أن يبعث بأخيه ليتحرى له حقيقة الأمر بنفسه بعيدًا عن الملابسات التى تتناهى إليه سماعًا.. سواء تلك التى يتقول بها الخصوم.. أو التى تصدر عن الأنصار!!

ولكن هذا الأخ المبعوث يقترب من المنبع.. ويسمع من النبى فيخشع ويعلن إسلامه وينضم إلى الأنصار، ويتحول من مراقب محايد إلى منتم.. وفوق ذلك لا يعود، حيث ترك شاعرنا ينتظر النتيجه.. وعندما يتناهى إلى كعب نبأ إسلامه يبلغ به الغيظ مداه.. فيقول ساخرًا من بجير، ومن دينه الذى اعتنق.

من مبلغ عنى بجيراً رسالة
فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا
شربت مع المأمون كأسا روية
فانهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى واتبعته
على أى شىء ويل غيرك دلكا
على خلق لم تلق أمًّا ولا أبا
عليه ولم تدرك عليه أخالكا

وواضح أن موجدة كعب تنصب أساسًا على صنيع بجير .. فلو أنه عاد من المهمة وأبلغ المنتظر بالنتيجة فربما كان الأمر قد تغير تمامًا .. ولكن المبعوث لم يعد فأحفظ هذا التصرف شاعرنا .. وقال ما قاله متهكمًا بفعلة بجير وبدين (المأمون) صلى الله عليه وسلم.

وهنا جاء الرد من بجير شعرًا يقول:

(من مبلغ كعبا فهل لك فى التى
تلوم عليها باطلا وهى أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده
تنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت
من النار إلا طاهر القلب مسلم)

وهنا يتبادر السؤال .. لماذا لا يكون رد بجير هذا قد جعله يعيد النظر فى موقفه .. ولماذا لا يكون هذا الشعر قد هز وجدانه وأفاقه من غيبوبة الزيغ ليواجه وعى الحقيقة .. وصاحبنا شاعر .. والشاعر بكل تكوينه وخصائصه الوجدانية يكون أكثر من غيره استعدادًا للاستجابة عندما يتوقد لديه الإحساس .. ثم أين هو التهديد الذاتى المباشر ذلك الذى يخيف فى أبيات بجير .. أنه تهديد لا ينصب على أحد بعينه .. وإنما يخص كل من هو فى موقف زهير بصفة عامة .. فبجير يدعوه إلى نبذ اللات والعزى . وهذا يكفل له النجاة .. النجاة من الله لا من محمد .. حيث هناك يوم لا ينجو ولا يفلت منه إلا المسلم الطاهر القلب .. والمقصود بالطبع هو .. يوم « الحساب » يوم القيامة .. ثم أين هو النص الموثوق الذى قد صدر عن الرسول يتوعد الشاعر بالقتل .

لاشىء إذًا غير تأويل لأبيات بجير أشاع به القوم حول كعب الزعم بأنه مطلوب لدى الرسول ، وأن القتل ينتظره !! أما عن الزعم بأن ذلك قد أخاف الشاعر فهرع يلتمس النجاة بمدح الرسول .. فإن صاحب القصيدة ينفى ذلك مؤكدًا بأنه جاء إلى الرسول طالب توبة مستهدف إسلام .. ولو كان هناك من تهديد فعلى أخافه .. ما كان أقدم على المجىء .. فكيف كان يمكن أن يلقى بنفسه إلى التهلكة ولا ضمان لديه فى احتمال النجاة .. لو كان خائفًا حقًا .. ولو كان هناك ثمة تهديد فِعْلى قد صدر عن النبى

ﷺ .. لا حتاط كعب للأمر أولا ولعرض التوبة من بعيد .. وانتظر النتيجة حيث هو .. فإن كان العفو قدم وفك التهديد عن رقبته .. وإن كان العكس هرب وأمعن فى الهرب بعيداً عن قبضة النبى .. وما كان الشاعر بالساذج الذى يقدم على أمر مثل هذا دون أن يحتاط لمغبته ولنحتكم إلى أبيات كعب ذاتها .

وقال كل خليل كنت آمله
لا ألهيتك إنى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبالكم
فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يومًا على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة ال
قرآن فيه مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
أذنب وإن كثرت فىَّ الأقاويل

هذه الأبيات تؤكد بأن الناس هم الذين أشاعوا حكاية التهديد بالقتل ، وهى تؤكد بأن هذا الشعر لا يمكن أن يصدر عن رد فعل مباشر لهذا التهديد .. كما يتضح من خلال السياق أن الشاعر قد

استوعب هذا الدين الجديد وفهمه واقتنع به وهداه الله فاعتنقه.. (فكل ما قدر الرحمن مفعول) هل يقول هذا شاعر كان يعبد اللات والعزى، قبل أن يكون قد فهم خصائص الإسلام وما جاء به بشأن إرادة الخالق وقدر الإنسان النابع عن هذه الإرادة.. ثم حديثه عن القرآن وأحكامه ألا يدل على فهم لآياته ودراسة لها.. ثم إنه ليس بالجبان الرعديد حتى يخيفه الوعيد لأن كل ابن أنثى مصيره فى النهاية أن يحمل ذات يوم على آلة حدباء هى (النعش) ويترك الدنيا وراء ظهره.. ثم هذا البيت بعد ذلك عن عظمة المجاهدين من صناديد الإسلام وجنده.

(لا يفرحون إذا نالت رماحهم
قومًا وليسوا مجازيعا إذا نيلوا)

هل يقول هذا إلا شاعر آمن حقًا وأفعمت وجدانه عظمة النفس الإسلامية المجاهدة فى سبيل الله؟

ألا يؤكد كل هذه بأن قصيدة (بانت سعاد) كانت وليدة إيمان واختيار لانتاج خوف وإجبار.. وهناك دليل قاطع يحسم الأمر برمته.. هل كان يمكن أن يخلع الرسول عنه بردته ليهبها لشاعر من أجل قصيدة جاهلية تخلو من روح الدين ومهما بلغ نفاذنا فلا يمكن أن يبلغ نفاذ رسول عبقرى البصيرة وهبه الله من الإلهام والذكاء والقدرة على استكناة النفوس ما يتيح له أن يستشعر الزيف فيكشفه.. وما يمكنه من أن يكتشف الصدق فيمجده.

رياح السموم

إذا كانت تطل من حروفى كثيرا .. دعوة متشبثة بالأصالة ، منطلقاً إلى المعاصرة .. إلى الانتماء إلى الذات القومية وجذورها وتراثها ، منطلقاً للتحليق فى آفاق التجديد والتطوير والتغيير .. وعلى أن نتعامل مع العصر من خلال الوقوف بصلابة ورسوخ على أرض الإسلام والعروبة .. إذا كنت ألح فى الدعوة إلى هذا .. فإن دعوتى تلك وليدة رؤية إنسانية ، وليست دعوة إلى التعصب والانغلاق ، وصرف النظر عما لدى الآخرين بما فى وسعه أن يثرى ذاتيتنا ويمدها بعناصر تتيح لها فاعلية لأن تساهم فى مسيرة القافلة الإنسانية .. وأن تكون قوة موجبة لا وجودًا سالبًا . فالإحساس المتورم بالذات والتقوقع حولها ، يمكن أن يتحول إلى مرض وبيل

يجمد الذات ويفقدها رحابة النظرة واتساع الرؤية. وينقلب إلى ضده ويتحول إلى عامل يدمر الخصائص القومية.. ويسلبها القدرة على الاستمرار والديمومة والمناعة ضد التآكل والانهيار.

كل ما عند الآخرين من فكر جيد ومن تاريخ مجيد ومن قيم حضارية، فهو رصيد لى بصفتى إنسان.. كل ما يشرف الإنسان فى أى بقعة من بقاع العالم فهو يشرفنى ويجعلنى أعتز بإنسانيتى وتكريم الله لى على سائر مخلوقاته.. ويدفعنى إلى التفوق والرغبة فى العطاء. كل شاعر مبدع مهما غنى بأية لغة وانتمى إلى أى وطن هو شاعر للإنسانية كلها. كل مفكر عظيم يصبح نتاج عبقريته إضافة لحضارة الإنسان.. كل بطل وطنى فى أى أرض، هو بمثابة تمجيد لقيمة البطولة فى كل الأوطان وكل الأزمان.

لكن ليس معنى أن أبهر بما لدى الآخرين فى مجالات التفوق الإنسانى هو أن احتقر ذاتى أنا.. لأننى حاليًا أفتقد بعض أو كل ما بهرنى عندهم.. وأن أتنكر لتاريخ كان رمزاً للعطاء الحضارى بأوسع ما تحمله الكلمة، وأن أدين تراثى، لأننى لست الآن فى قلب الركب، وأن أعتبره المسئول عن تخلفى وتراجعى، ثم أدعو إلى الانسلاخ من ذاتيتى وقوميتى.. هذه نظرة مراهقة إلى التقدم بمعناه الحضارى الإنسانى، إنها انهزامية جديدة تلك التى يروج لها بعضنا بهذا الفهم القاصر والغبى للحضارة. وهى ترديد لمحاولات قوى أجنبية تستهدف تدمير مقوماتنا الذاتية والإطاحة بحصانتها ليسهل

عليها ابتلاعنا .. ولا شيء يسهل لها هذا غير أن تميع شخصيتنا القومية .. وأن يترسب فينا الإحساس بالدونية وإذا كان هذا يحدث . وما أكثر الشواهد عليه حولنا .. فلا يجب أن يكون رد الفعل هو الانغلاق والشك فى كل ما لدى الغير ، وترسيخ الاعتقاد بأن ما عندنا يكفى ويغنى .. فإن هذا أيضًا يتساوى فى الخطر مع محاولات اقتلاع الذات من جذورها ومن تراثها ، ومن انتمائها الإسلامى والعربى . المطلوب هو أن نتحاور مع العالم . أن نقدم إليه وأن نحلق فى آفاق العصر بكل الامكانيات التى تتيح لنا هذا التحليق . ولكن عندما ننطلق فلابدّ أن تكون معنا بوصلة الوعى بالذات .. حتى لا نضل الرؤية وحتى لا نقع فى متاهات الضياع ويمكننا أن نعود إلى القاعدة التى أنطلقنا منها ..

أقول هذا وفى خاطرى ما يحدث فى مجال الأدب فى أنحاء كثيرة من العالم العربى من محاولات تشتم منها رائحة التهكم على التراث .. والمحزن أن أغلب هذه الكتابات لم تتعامل مع التراث أصلا وتجهله تمامًا .. بعض هؤلاء يعتقد أنه لكى يكون طليعيًا وتقدميًا ومجددًا فى الشعر أو النقد أو القصة فعليه أن يذكر فى قصائده أسماء لوركا واليوت ودالى ونيرودا ، وأن يكتب القصة كما تكتبها ناتالى ساروت ، وليس لديه أرضيتها ولا قضيتها ولا واقع مجتمعها ، وسأعود للحديث عن هذا بعد ذلك وأتذكر ما حدث بعد هزيمة ١٩٦٧ . فبينما كانت مصر مذبوحة تتلوى فى سيناء والدم يشخب

منها . وبينما كان العالم العربى يترنح من فرط الضربة وقتها - بدلا من أن يواجه الأدب ما حدث مواجهة واعية وموضوعية - انطلق الأدباء فى هلوسة إدانة الذات العربية وتجريحها .. وكانت فرصة اغتنمها الذين دأبوا على التشكيك فى العروبة وتراثها ليطلوا من جديد وينتعشوا من خلال مناخ الهزيمة وتنطلق دعاواهم بأن العيب فى التراث الذى يسيطر علينا والفكر غير (التقدمى) الذى يسود بيننا .. ووقع الأدب فى الحفرة .. وانطلق يمارس عملية الإدانة وتحقير الذات .. كان المفروض أن ندين الأوضاع التى أدت إلى الهزيمة ، وأن نسلط الضوء على الأوضاع التى ساقت إليها ، ولكن بدلا من هذا راق لنا أن نمارس الانتحار .. وأن نتعاطى عقار الهلوسة وأن ندخل حلبة الجنون .

والحديث ذو شجون .. مؤخرًا جاءنى شاعر شاب بقصيدة يقرؤها علىّ .. على مدى القصيدة كانت تتناثر أسماء غريبة كثيرة جعل منها رموزًا ، ولم أجد فى القصيدة أى اسم عربى بشكل رمزًا لقيمة إنسانية ، وفتحت باب الحوار مع الشاعر حول تراثنا لأعرف موقفه منه ومدى رؤيته فى التعامل معه .. واكتشفت منذ البداية جهله بهذا التراث وأن كل ما لديه نظرة عامة لم يستمدها من التعامل معه ، بل من مسلمات جاهزة جرعت له ليسلبوا منه القدرة على الاكتشاف ، وعلى تكوين الموقف من خلال المعاناة .. وليقيموا بينه وبين هذا التراث ستارًا صفيقًا من المغالطات وركامًا من التشويه .. وصاحبنا

الشاعر يريد أن يكون (تقدميًّا) (وطليعيًّا) فكيف يتعامل مع ابن حنبل وعمر بن عبد العزيز وأبو العتاهية .. أمام هذا ألا يقفز السؤال : هل هناك عملية لاحتواء أجيالنا الجديدة واستلابها .. وتجريدها من الانتماء تمهيدًا للانقضاض علينا ، وبذلك يجد هذا الإنقضاض المناخ الملائم والأرضية المهدة والعقول المستعدة .. لابد أن نجد للسؤال إجابة .. ولابد أن نحبط المحاولة ونعريها .. وفوق ذلك لابد أن نهزمها .. إن ما أقوله لا ينطلق من فراغ ولا من توهم .

هزيمة ١٩٦٧ عندما استفقنا من هلوسة إدانة الذات ولطم الخدود وشق الجيوب بدأ يطل التساؤل لماذا .. نعم لماذا .. وكان التساؤل بداية الصحوة وعلامة وعيها كان التساؤل يؤرق وجدان كل إنسان عربى .. وكان من الممكن أن يفجر هذا التساؤل لو بلغ مداه وسار فى مجراه الطبيعى ما يجعلنا نمسك بخيوط الضوء وبدأ هذا التساؤل يطل من الأدب أيضًا . ولكن فجأة أجهض السؤال بسرعة .. وفجأة بدلا من أن نستخلص الإجابة وجدنا أدبنا يغرق بلا مقدمات فى طوفان من التغريب والعبث والبهلوانية الشكلية ، ووجدنا نقادًا ينظرون للشكلية غير المبررة فنيًّا تحت دعاوى التجديد والمعاصرة وغير ذلك من تسميات أطلقوها .. وبهذا الطوفان من الأدب المريض قذفوا الضباب فى وجه السؤال الشرعى .. وفى اعتقادى أن المسألة لم تكن طبيعية أبدًا ، كان وراءها تخطيط يستهدف تمييع

السؤال لنفقد طريق الوصول إلى الحقيقة، بل إن هذه المحاولات عمدت إلى إرهاب الحياة الأدبية فكل من يكتب بغير هذه الطريقة فهو لا يساير إيقاع العصر.

ظلت الظاهرة التى تحدثت عنها تؤرقنى.. لا يمكن أن يكون الأمر طبيعيًا. أن يتحول الأدب هكذا إلى هلوسة غير مبررة حيث نفقد مقومات الفن فى أغلب ما يكتب، فالرمز الفنى له مفاتيحه، والتعقيد الفنى يمكن أيضًا اكتشاف مستوياته.. ولكن هذا الضباب.. هذا العبث ما جدواه إلا أن يكون هناك من يشجعه لهدف ما ويروجه لغرض ما. حتى يضيع السؤال الذى أطل. كان المقصود أن نضرب فى التيه.. أن نفقد الرؤية.. أن نضل الطريق. ومن خلال هذا تمسك الأيادى الشريرة بأعنة مصائرنا وزمام مقدراتنا فليذهب الأدب الحقيقى والفن الحقيقى إلى الجحيم.. ليتكاثر الأدعياء وفقراء المواهب، المهم هو الهدف.. هو أن نتخبط وألا نصل إلى جسر يوصل إلى الهدف.. أن نضيع باختصار.

وأرصد الظاهرة.. كنت أحد الذين يشرفون على مجلة (نادى القصة)، وكنت أحرر بابًا بعنوان مع (كتاب القصة)، أقدم من خلاله وجهات نظرى فيما يرد إلى المجلة من قصص دون مستوى النشر. أرسل لى أحدهم قصة تقليدية دون المستوى وقلت رأيى. بعد ذلك بأسابيع جاءتنى منه قصة أخرى تختلف عما كان يرسله إلىّ من قصص لقد دخل اللعبة الجديدة لعبة (الشكلية) والعبث وكتابة

أى كلام إيهامًا بالتجديد .. فطن صاحبنا إلى اللعبة ، فما دام عاطلا دون أن يقول بالوضوح فنّا ، فليجرب التعمية عساها فى ظل المناخ السائد تتيح له المرور ، وأراد أن يضللنى فعملية التجديد فى القصة لم تكن قد اكتسبت أيامها أرضيتها الجمالية ، ولا المناخ النقدى الملائم لبيان الأصلاء فيها والأدعياء ، وفى أشكال التعبير التقليدية تبدو الأصالة بسهولة ، ويمكن أن يُكتشف الأدعياء بسرعة ، أما هنا فالفرصة مواتية لأى دعىّ يريد أن يخفى عجزه عن إبداع شىء حقيقى ، ليسبح مع التيار زاعمًا أنه يجدد ، وأنه يجرب وأغلب الذين زعموا هذا كانوا من أدعياء المواهب .. مثل هذا الذى كشفه الوضوح ، فأراد أن يمر من خلال الضباب الذى زعموه تجديدًا .. فعندما كشفته من خلال البناء التقليدى للقصة كما كان يكتبها .. أراد أن يخدعنى إيهامًا بالتجديد . وتزايدت شكوكى فى أن للموجة أغراضها الخبيثة . إن التجديد الفنى يجب أن يتم من ضرورة ، ومن خلال الاقتدار على تطويع النوعية الأدبية ذاتها ، وبذلك يصبح الأمر إضافة لا مجرد ثرثرة ، فكيف تحول الذين كانوا يعجزون عن كتابة جملة عربية سليمة إلى طلائع تجدد .. وتقود حركة الفن .. هذا هو المطلوب إذن ، أن يمر الزيف ، أن ينتشر ، أن يطفو ، أن تتوارى القيمة وأن تنكسر ، وأن تقهر . فى مثل هذا المناخ تشق القوى الشريرة المتربصة طريقها . ولتكن إذن دعوة إلى رجال الفكر عندنا لرصد الظواهر الأدبية والفنية ، وكشف ما وراءها من أهداف قد

تكون خبيثة.

ولكن ليس معنى هذا الذى أقوله، أننى أقف فى ذات الموقع الذى ننطلق منه بعض الدعوات المتشنجة، التى تتهم كل محاولة لإثراء فكرنا العربى بفكر الآخرين، بأنها مغرضة، وأنها مشبوهة. ولا أنتمى كذلك إلى الذين يرجمون كل محاولة للتجديد فى الأدب والفن، واتهام أصحابها بالعداوة للتراث وللعروبة.. هذه مراهقة يجب أن ننتهى منها. لقد سئمنا أن يتصدى الذين تجمدت عقولهم، وفقدوا خواص الملاءمة لعصرنا المتحرك المتجدد، لاتهام لكل مجتهد بأنه شعوبى المنطلق، وكل مجدد بأنه شيوعى الهدف.

بدلا من أن ننسف الجسور !!

بين الحين والحين يتجدد الحديث فى صحافتنا عن أزمة الفكر العربى .. والملاحظة التى تلفت النظر أن بعض الذين يتشدقون بالحديث عن هذه الأزمة ، تنطلق كلماتهم من أرضية تجريدية من جهة .. وأنها من جهة أخرى ، لا تُعنى إلا بتعداد مظاهر الأزمة .. دون معاناة فكرية لاكتشاف الأسباب التى أدت إليها .. ودون تقديم حلول من شأنها أن تؤدى إلى تجاوز هذه الأزمة .. ومن البديهيات أن أى محاولة للقضاء على ظاهرة ضارة ، لن تكون ذات جدوى إلا إذا عرفنا أسباب العلة أولا .

وفى رأيى أن أزمة فكرنا المعاصر نتجت من كونه - هذا الفكر - قد عمد - فى خلال تهافته على المقومات التى تتيح له أن

يوجد فى قلب العصر – إلى نسف الجسور التى تربطه بتراثه .. ولذا فقد صاحب عملية الانعتاق الأهوج ، انطلاق جامح نحو الغرب ، نجتلب منه مادة فكره وقوالب هذا الفكر .. بدون أن نقيم عملية توازن بين احتياجاتنا الحضارية الفعلية .. وبين ما يمكن أن نجرى معه الحوار لعدم ملاءمته للذاتية العربية . فنطوعه إن كان يملك خاصية هذا التطويع .. أو نرفضه من خلال الوعى بأسانيد هذا الرفض ودواعيه .. ان لكل تربة خصائصها ومكنوناتها وظروفها الحضارية .. وعلينا أن ندرك الأسباب العلمية للكلمة المأثورة التى تقول « أشجار الأرز لا تنمو فى خط الاستواء » !!

أزمة فكرنا أنه لم يحاول الربط بين انطلاقة التجديد وضرورته .. وبين خصائص تراثه القومى وظروفه الحضارية .. وأضافت الرواسب التى أفرزتها الثقافة الاستعمارية وأشبعت بها نفوس بعض مثقفينا ، ما زاد من حدة الأزمة .. لأن هذه الرواسب التى مسخت عقول البعض منا يتمخض عنها الكثير من المحاولات ، لإلقاء الضباب فى وجه أى محاولة تستهدف رؤية سليمة للواقع العربى ، تتيح لنا أن نعرف موطن الداء وصولا إلى أنجع الدواء .. فهذه المحاولات وليدة المسخ الثقافى تقوم بعملية تشكيك مباشر وغير مباشر فى التراث العربى ، والإيحاء بعدم جدواه وعدم قابليته لأن يقدم لنا ما يمكننا من الانطلاق نحو التقدم ، لملاحقة الركض الذى تندفع به المسيرة الحضارية المعاصرة .

ومازلنا حتى الآن نسمع بعض أصوات تنادى بصراحة .. وتحرضنا بشدة لحملنا على التنكر لكل ما هو عربى .. تاريخنا وتراثنا ومقومات قوميتنا لنذوب نهائيًا فى الثقافة الغربية المتقدمة .. أن نتجاهل ثقافتنا العربية ونرفضها وندوسها بالأقدام، وإلا فنحن محكوم علينا بالتخلف، ومقضى علينا بالتجمد .. تمهيدًا للانقراض .. وعندما حدثت هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ تجاهل هؤلاء الأسباب الموضوعية الحقيقية التى أدت إلى الهزيمة، ليغرقونا فى طوفان من الاجتهادات المغرضة التى استغلت ظروف الهزيمة، للإيحاء بأننا هزمنا لأننا لم نتغرب تمامًا. ولم ننسلخ عن تراثنا المتخلف بما فيه الكفاية.

إن هؤلاء – وبعضهم ينطق من المراهقة الفكرية والبعض الآخر يعى بخبث ما ينادى به – يخلطون بين مقومات التقدم العلمى .. وبين مقومات الثقافة الحضارية .. قد يكون من مظاهر التقدم أن تكون لدينا عمارات شاهقة وشوارع مرصوفة .. ومعامل متقدمة، ومصانع متطورة، وتقنية حديثة .. ولكن الحضارة ليست كل ذلك .. الحضارة هى الإنسان .. وكل تقدم لا يستهدف الإنسان ذاته .. ليكون كما أراده الله فلا قيمة له.

إن العلم الذى هو عطاء العقل البشرى وهو تراث الإنسانية كلها .. لكل أمة أن تستفيد منه وأن تضيف إليه .. وهى فى عملية الاستفادة لا يمكن أن تعانى مذلة النقص .. كما أنها فى عملية

الإضافة لا يمكن أن تدعى أن هذا «ماركة» مسجلة باسمها.. وإلا لجاز لنا أن نقول لكل من يستفيد بأى إنجاز لقوانين علم الكيمياء قدم لنا جزية لأن «جابر بن حيان» من عندنا.. ولجاز أن يقوله أيضًا أبناء القوم الذين ينتمى إليهم «لا فوزية»، ولو ساد هذا المنطق الساذج لأمكننا أن نقول لكل طبيب يعالج داء باطنيًا.. انتظر عليك أن تدفع لنا ضريبة.. لأن «ابن النفيس» هو الذى سهل لك ذلك الاكتشاف، باكتشاف الدورة الدموية..

أما الذين يزعمون بأن الذهنية العربية قاصرة، وأنها غير مزامنة لإيقاع العصر فلا يمكن لتفكير علمى جاد أن يزعم بأن الذهن العربى غير خالق وغير مبدع، وأنه لم يضف شيئًا.. وأنه لابد لنا من الذهنية الغربية - كأنما الذهنية دواء مستورد وجهاز يُجتلب - لكى نخلق ولكى نبدع ولكى نتقدم.. هذه دعاوى مغالطة تمليها المراهقة فى التعامل مع الثقافة.. وتمليها كذلك أهداف خبيثة تتربص للأمة العربية وتتوخى هزيمتها من داخلها.. فالإنصاف الموضوعى يقتضى الاعتراف بأننا أبدعنا وأننا أضفنا.. والحضارة المعاصرة ذاتها تدين لنا بالكثير مما أعطاه الذهن العربى فى مجال العلم وفى مجال الفكر.. وإذا كان دورنا فى الإضافة قد تعثر، فذلك لأن الاستعمار الغربى قد انقض علينا فى فترات إغفاء.. وداس بأقدامه أجنة نمونا.. وإذا كان فكرنا المعا- يعانى أزمة فلن يحلها الاستيراد والذوبان كما يريد البعض فى بلاهة.. وكما يتمنى البعض فى خبث..

ولكن يحلها أن نبحث مالدينا ونقيمه .. ونعرف مدى ما يمكن أن يستمر منه .. ومدى ما يمكن أن نتجاوزه انطلاقًا منه فى ذات الوقت وتخطيًا له .. عندئذ يمكننا الإضافة بدلا من الثرثرة !!

الإسلام هو الخلاص !

أمام ديمومة الإسلام وخلوده وتوهجه .. وشموخه متحديًا كل المذاهب والنظريات والتيارات التى حاولت أن تقارعه وتطاوله .. ثم خرت فى النهاية صريعة أمام حقيقته ومحتواه وعظمته .. أمام كل هذا يقفز التساؤل عن السر الذى جعل الإسلام متوهجاً منذ إشراقة فجره .. مكفول الديمومة متدفق الاستمرار .. معصومًا من التآكل الذى يهم بكل قديم ، ويدهم كل ما توالت عليه الحقب والعصور . السر الذى وقاه من أن يتحول إلى مجرد مراسم شكلية ، لا تمثل فى غير طقوس مفرغة تؤدى بحكم الوراثة والأعراف ، وتمارس طبقاً للمواصفات والعادات بدون أن تجرى دمًا فى الشرايين .. وإحساساً فى القلب ، ونبضاً فى الروح .. وسيطرة على المخلجات ورؤية تضىء

الوجود والكون .. وتصبح امتزاجًا متناغماً بين العقيدة والفعل بين النظرية والتطبيق .. والإيمان والسلوك .

عندما نتساءل عن هذا السر ، تقفز إلينا الإجابة حاملة نصاعة الحقيقة وروعتها السر فى بساطة ، وهو أن الإسلام ينطوى على الشيء الأساسى فى داخله ، وهو الذى أتاح له هذا الاستمرار المتوهج .. إنه دين الإنسان .. دين الفطرة .. دين احيتاجات الجسد وأشواق الروح .. ومن هنا سر ملاءمته لكل تطور ، والتقائه مع كل قادم واحتضانه لكل آتٍ ، وصلاحيته لكل زمان ولكل مكان .

وعندما نتأمل أوضاع عصرنا هذا المكروب المأزوم ، الذى تنتهبه صراعات التنافس ، وضغائن المذاهب ، ومطامع الأنظمة .. ونجد أن إنسان هذا العصر تلاحقه أفانين التعاسة وضروب الإحباطات ، ويعيش حياة قلقة لاهثة بلا غاية وبلا معنى حيث أفلست كل النظريات فى أن تقدم لإنسان هذا العصر خلاصًا حقيقيا يعصمه من الخطر الذى يتهدد حياته والشرور التى تحيط بها .. عندما نتأمل هذا العصر الذى تضمر فيه الروح ، وتنمو فيه مخالب الأنانية والتوحد ، والإنهماك فى الاقتناء المسعور ، واللهاث خلف السراب .. وفى النهاية يجد الإنسان نفسه فى مهاوى العبث واللاجدوى .. وأنه لاشيء فى يده غير قبض الريح .

حينئذ علينا نحن أبناء الإسلام أن نتقدم من جديد لننقذ الإنسانية كما أنقذناها فى الماضى .. علينا أن ندلها على طريق

الخلاص .. أن نأخذ بيدها إلى الإسلام، إنها مهمتنا الآن أن نقدم الإسلام خلاصًا للإنسانية وحلا ناجعًا لأزمتها العاصفة .. فلتكن مهمتنا الآن هى البحث عن أفضل الوسائل التى تتيح لنا تقديم الإسلام للإنسانية كلها .. إسهاماً فى إنقاذ العالم، وتحقيقاً للمهمة التى ألقاها الله على عاتقنا.

بالحق لا بالسيف

ثمة مغالطات مغرضة ومجحفة حاولت ترويجها العناصر المعادية للإسلام .. تزعم بأن الإسلام قد انتشر بحد السيف، وغلَب بأسنة الرماح .. ولكن هذا الزعم يتهاوى متداعيًا عندما تجابه هؤلاء بالسؤال .. لو كان الإسلام - كما يغالطون - قد انتشر بالسيف .. فلماذا لم يلاحقه الجذر والإنحسار عندما استعمرت تقريبًا كل أمصاره، ودهمت جحافل الغزاة أغلب أقطاره .. أى قوة حمته إذن من التدهور .. غير مقوماته الذاتية ومناعته الخاصة، وقدرته على أن يواجه التحديات ويدحرها ويخرج منها حاملا برهان ربه وعظمة أصالته؟

إذن فلم يشهر الإسلام سيفه .. ولكنه قدم تعاليمه .. لم يستجلب أحداً بالقهر وإنما اجتذب الأفواج بالمبادىء والحب .. فوق هذا لماذا ظل برغم هزيمة أقطاره ووقوعها تحت سيطرة القوى الاستعمارية

تدخل فيه الأفواج تلو الأفواج، وخاصة من أبناء القوى الغالبة ذاتها .. إن الإنسان لا يترك دينه إلا إذا حدث له زلزال روحى يهز كل وجوده وكيانه .. وهذا الزلزال الذى هزّ نفوس الذين هرعوا إلى الإسلام هو الحقيقة .. أليس دليل عظمة الإسلام أن أحدًا من الذين اهتدوا إليه من ناسه لم ينصرف عنه ولا خالجه الشك لحظة فيه .. وأن الناس مازالوا يدخلون فيه كل يوم .. وهاهى الأنباء تطالعنا متوالية عن الذين يهرعون إلى ساحته ويلوذون بحظيرته وهم فى نفس الوقت من صفوة رجال الفكر والعلم فى العالم الغربى .. فهل بعد هذا يزعم مكابر بأن الإسلام ساد بحد السيف وغلّب بأسنة الرماح ؟

هذا العالم ينتظر الإسلام

تحدثت مرة عن واقع عالمنا المعاصر .. وأوضاعه المحزنة .. حيث القلاقل والكروب والتناحر والضياع ، وصراع المذاهب وإفلاسها فى أن تقدم للإنسان خلاصا وللعالم حلا ، حتى العلم الذى ظنوه العصا السحرية لم يستطع أن يقدم غير الوسائل الميسرة ، ولكنه فى جانب آخر أضفى تعقيدًا على حياة الإنسان .. وامتص منه أمن الروح وسلام الوجدان وأصبح الإنسان مجرد شىء من الأشياء .. وأمام هذا أو غيره استنتجت بأن الإنسان سيتوقف ذات يوم ليتساءل إلى أين يمضى به هذا الجنون وربما تكون الإجابة هى : لابد من العودة إلى النبع .. وإلى المصدر الحقيقى .. إلى الله .. حيث لا ملجأ إلا إليه ولاخلاص إلا به .. استنتجت بأن العالم ليس أمامه

إلا هذا .. أن يثوب إلى رشده وأن يستفيق من غيبوبة وهمه ويلوذ بحظيرة الخالق .

وقلت إن الاسلام بطبيعته وما ينطوى عليه ، هو القادر وحده على أن يقدم الخلاص للإنسانية من جديد ، كما قدمه ذات يوم عندما أشرق فجره بعد ماوصلت الإنسانية إلى حافة الهاوية .. وها هى الآن على حافة الهاوية من جديد بطريقة مختلفة وإن كانت النتائج واحدة تقريبًا . ودوننا التاريخ ، علينا أن نقارن بين وضع الإنسانية قبل مجىء الرسالة المحمدية ، وأوضاعها الآن عندما انصرفت عن سماع صوت الله .. والإسلام هو القادر على أن يعيدها إلى جادة الصواب .. بعد أن يعود إلى الإسلام الحقيقى أهله ، وأن يلوذ به غيرهم من أبناء الأمم الأخرى .. ولدىّ يقين صادق بأن هذا سوف يحدث قطعًا .. وما أقوله ليس مجرد الاستغراق فى حلم رومانسى وليد تهيؤات عاطفية . بل هو نتيجة يدعمها الاستقراء وتؤكدها الدلائل ، ومهما كانت الآن محدودة ، فهى تشير إلى إمكانيات قادمة .. فهؤلاء الذين يدخلون فى دين الإسلام من أبناء الحضارات الأخرى والأديان الأخرى ، يمكن أن يعطينا تزايد أعدادهم الأمل فى أن ذلك سوف يحدث ذات يوم .. أن يكون الإسلام هو دين كل البشر .. وهنا تجد الإنسانية – فى ضوء تطبيقه – التعويض لكل ماعانته ، والخلاص من كل ماتعانيه .. ومما يجعل الأمل وطيدًا والحلم مدعومًا ، أن الذين يدخلون حظيرة

الإسلام الآن ، هم خلاصة الصفوة المثقفة والمفكرة والعالمة .. وأنهم اعتنقوا الإسلام بالمعاناة لا بالمسايرة .. وأنهم هرعوا إليه بالاختيار لا بالوراثة .. وسوف تنداح رؤيتهم للإسلام لتهدى غيرهم وتجتذب سواهم .. وعلى ديار الإسلام أن تأخذ زمام المبادرة لتحقيق هذه المهمة وتيسير سبلها وإزالة العوائق من أمامها خصوصًا وأن فرص نشر الدعوة الإسلامية اليوم متاحة بما لم يتح لنا فى أى عصر من العصور .. فديار الإسلام الآن بحكم استحواذها على أهم مصادر الطاقة ، أصبحت تمارس تأثيرا لاشك فيه فى شئون العصر الأساسية .. ولعله ليس مصادفة أن وهب الله هذه الأرض – أرض الدعوة – هذه الطاقة التى تفجرت فى عصر لاغناء له عنها ولابديل .. بل أصبحت تشكل قوام حياته بمختلف جوانبها .. ولعل الله فعل ذلك لحكمة . وأنه أراد بذلك أمرًا .. فلينطلق الإسلام من هنا من جديد ، كما انطلق ذات يوم ليكتسح نوره ظلام العالم .. وكل الظروف الآن تهيىء لهذا الانطلاق مبرراته وتكفل له انتصاره .. فلتتضافر الجهود المخلصة لتقديم الوجه الحقيقى للإسلام .. ولن يخذل الله رجاله إذا صدقت النية وانبرى الفعل .

وأعود إلى مابدأت الحديث به . عندما قلت بأن الإنسانية لن تجد حلا فى النهاية غير الإسلام .. والإسلام وحده .. كنت أعتقد أن هذه المقولة المبشرة وليدة اجتهاد شخصى من جانبى .. إلا أنه أسعدنى مؤخرا أن اكتشف أن جذور هذه النبوءة وهذا التوقع فى

كتابات أخرى سبقتنى إلى هذا الاجتهاد .

فمنذ أكثر من نصف قرن قال المفكر الإسلامى الراحل الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة كتابه (حياة محمد) : « إن هذا البحث جدير بأن يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى تتلمسها ، وإذا كانت نصرانية الغرب تستكثر أن تجد النور الجديد فى الاسلام ورسوله ، وتشيم هذا النور فى (تيوزوفية) الهند ، وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى . فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى جميعًا ، خليقون بأن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والانصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق » وعلينا أن نضع فى الاعتبار أن الأديب الدكتور هيكل قال هذا فى الثلاثينات من هذا القرن .. ولم يكن الإسلام فى الغرب المسيحى قد أتيحت له هذه الكثرة من المنصفين له .. ناهيك بالذين اعتنقوه من رجال الفكر والعلم .. بل كان العداء للإسلام فى أوج سعاره . والحملة على الإسلام فى قمة تأججها ويردف الدكتور هيكل : « فالتفكير الإسلامى على أنه تفكير علمى الأساس على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعى بحت – ينقلب تفكيرًا ذاتياً حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون وخالق الكون .. ويبدع ذلك فى النواحى النفسية والنواحى الروحية أثارًا يقف العلم بوسائله حائرًا أمامها لايستطيع أن يثبتها ولا أن ينفيها .

ولا يعتبرها حقائق علمية .. ثم هى تظل مع ذلك قوام سعادة الإنسان فى الحياة .. فما الحياة .. وما صلة الإنسان بهذا الكون ، وماحرصه على الحياة ، وماهى العقائد المشتركة التى تبعث فى الجماعات القوة المعنوية التى تضمحل بضعف هذه العقائد ، وما الوجود وما وحدة الوجود .. وما مكان الإنسان من الوجود ووحدته .. هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدى ووجدت منه أدبا مترامى الأطراف ، لكنك تجد حلها فى حياة محمد وتعاليمه . أو فى تبليغه الناس سعادتهم ، من هذا المنطق التجريدى الذى أخذ فيه المسلمون قروناً منذ العهد العباسى وأخذ فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر .. مما انتهى بالغرب إلى العلم الحديث على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى .. ثم وقف العلم فى الماضى .. كما أنه مهدد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية .. ولاسبيل إلى إدراك هذه السعادة إلا بالعودة إلى حسن إدراك هذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود . فى وحدته التى لاتتغير سنتها ولايعتبر للزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبى لحياتنا القصيرة . وحياة محمد هى لاريب خير مثل لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسة علمية لمن أراد ، ودراسة عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال فى مراتب أولية ، لبعد مابينه وبين الصلة الإلهية التى أفاء الله على رسوله . وأكبر ظنى أن هاتين الدراستين خليقتان – يوم يتاح لهما التوفيق – ، أن تنقذا عالمنا الحاضر من

وثنية تورط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية ، وثنية جعلت المال وحده معبودا ، وسخرت كل ما فى الوجود من علم وفن وخلق ومواهب ، لعبادته والتسبيح بحمده .. قد يكون هذا التوفيق مايزال بعيدا . لكن طلائع القضاء على هذه الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر ، وتوجه الحضارة الحاكمة فيه ، واضحة لكل من تتبع سيرة العالم وأحداثه .. فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد النبى وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم أثرًا من آثاره ، وإذا أتاحت الدراسة العلمية والدراسة الذاتية لقوى الإنسانية الكمينة مزيدًا من اتصال بنى الإنسان بحقيقة الكون العليا ، لكان ذلك الحجر الأول فى أساس الحضارة الجديدة .

وبعد أن يستعرض لنا الدكتور هيكل النزاع الذى نشب فى أوربا بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية . حيث انتهى الأمر إلى فوز السلطة الزمنية وإمساكها بزمام المصير .. ولكنها وقعت فى براثن المادية تماما .. بعد أن حاولت ونجحت فى القضاء على الحياة الروحية ، باسم العلم متوهمة أن العلم سيحل من الحياة الإنسانية محل الإيمان من الحياة الروحية ، ولكن كما يقول الدكتور هيكل : « ها هى ذى قد عرفت اليوم بعد جهاد طويل سوء رأيها .. وأن ماقصدت إليه مستحيل تحقيقه .. والصيحة تعلو اليوم من جوانب

الغرب المختلفة يريد أهله حياة روحية أضاعوها » .

وهنا كما قلت يأتى دورنا فلنأخذ زمام المبادرة لتقديم الإسلام إلى العالم والأرض ممهدة والريح مواتية . فهل ننتهز الفرصة المتاحة .

ولايفوتنى هنا - تأكيدًا لما آراه من أن الإنسانية سوف تتجه فى النهاية إلى قبلة الإسلام - أن أورد تعليق شيخ الاسلام الراحل المغفور له الشيخ مصطفى المراغى حيث يقول تعليقًا على ماذكره الدكتور هيكل :

« هذا الاطمئنان يؤيده الواقع .. فإن مايرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق ، ومن عناية علمائه بدراسة الإسلام من نواحيه المختلفة .. ودراسة تاريخه وأممه قديمًا وحديثا ومن إنصاف بعضهم للنبى ﷺ . ومأأيدته التجارب من أن الحق لامحالة غالب .. كل ذلك يرشدنا إلى أن الإسلام سينشر لواءه على العالم .. وسيكون أشد الناس عداوة له هم أشد الناس غيرة ودفاعًا عنه .. وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله » .

ولكن يبقى فى النهاية .. أن دورنا فى نشر الإسلام ونشاطنا فى تقديمه ، هو العامل الفعال فى انتصار الإسلام ودحر الوثنية الجديدة .. لنكون مصداقًا وتطبيقًا للقول الكريم « كنتم خير أمة أخرجت للناس » والله ينصر الذين يستهدفون نصره .. ونصرنا لله هو أن ننصر تعاليمه .

إنه الإسلام .. وإنها مصر

عندما انطلقت ثورة الإسلام الماجدة .. ماثلة فى صيحته الخالدة (لا إله إلا الله) .. كان حتما أن تسقط بعدها كل الأشياء التى تحول بين الإنسان وبين أن يمارس حريته المطلقة فى أن يصنع مصيره بما يتوافق مع عظمة الصيحة ودلالة ماتنطوى عليه وما توحى به .. تهاوت كل القوى العائقة التى يمكن أن تستلب من الإنسان قدرته على أن يكون كما أراده الله أن يكون ..

بعد لا إله إلا الله ، لم تعد هناك شرعية وجود لأية قوة باطشة فى أن تمارس استبدادها باسم أية دعوى وتحت أى منطق مزعوم .. كل وصاية على الإنسان تهاوت وتداعت وفقدت أى مبرر لوجودها .. لاشرعية للقهر من جهة .. ولاعذر للمقهور فى أن يخنع للقهر من

جهة أخرى .. لا إله إلا الله ، معناها أن الخضوع وزر لن يغفره الإسلام .. عندما صاح الإسلام .. لا إله إلا الله ، اكتسب الإنسان للتو شرعية أنه يولد منذ البداية حرًّا .. وعليه تقع تبعة الحفاظ على حريته وحماية كل القيم التى تحتوى هذه الحرية وامتداداتها .

قرأت مؤخرا كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » الذى صدر عن دار المعارف فى « كتابك » للأستاذ الأديب أنور أحمد .. وأتوقف هنا عند فصل بعنوان « الحرية للإنسان والفرد » لأتحدث عن مدى ماتنطوى عليه دلالة قصة معروفة أوردها الكاتب ليستخرج منها التأكيد على مدى الحرية التى كفلها الإسلام للإنسان .

جاء مصرى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشكو إليه عمرو ابن العاص الذى كان واليًا على مصر ، وقال له : إن عمرو أقام سباقًا للخيل ، فأقبلت فرس المصرى فى المقدمة فحسبها محمد بن عمرو بن العاص فرسه . فلما تبين الحقيقة غضب ووثب على المصرى يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين .. وعلم عمرو بما حدث فخشى أن يشكوه المصرى إلى الخليفة فحبسه زمنًا .. ولكن المصرى أفلت .. وذهب إلى عمر بن الخطاب شاكيًا . فاستدعى الخليفة عمرو بن العاص وابنه محمد من مصر . فلما حضرا استدعى المصرى وناوله الدرة – العصا – وقال له : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين .. فضرب المصرى ابن عمرو بن

العاص حتى أثخنه . ثم قال عمر : أجلها على صلعة عمرو .. فوالله ماضربك ابنه إلا بسلطانه !

فقال المصرى : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى .. قال عمر : أما والله لو ضربته ماحلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ، ثم التفت إلى عمرو بن العاص وقال قولته الخالدة : أى عمرو .. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا .

والقصة تنطوى على دلالات قد أفاض الناس فى الحديث عنها منذ أطلقها عمر .. إنه الحق الطبيعى فى الحرية التى يكتسب بمجرد الوجود .

هذا الحق الذى كفله الإسلام قبل أن تخوض الإنسانية بحار الدم من أجل تأكيده .. أكده الإسلام قبل مئات السنين من كتابات جاك روسو ، ومنتسكيو ، وفولتير وغيرهم .. وهناك دلالة أخرى .. هى مسئولية الحاكم تجاه مايصدر من أهله وذريته من اعتداء على الآخرين « فوالله ماضربك ابنه إلا بسلطانه » ، إذن فالمسئولية لا تقتصر عليهم وحدهم ، بل تمتد لتنال الحاكم ذاته .. ولو أراد المصرى فى قصتنا تلك أن ينال من عمرو لما وجد حائلا دون ذلك .. والخليفة ذاته قد طلب منه أن يدير العصا على صلعة عمرو .. ولكن المصرى اكتفى بأن يأخذ حقه فى ضرب من ضربه وتنازل عن حقه فى القصاص من الحاكم الذى تجرأ الابن استنادًا إلى سلطانه .

هناك أيضا دلالة خطيرة تنطوى عليها القصة لا أعرف إن كان هناك من فطن إليها قبلى .. أو أننى كنت أول من تنبه إليها .. إذ لا أذكر من جانبى أننى قرأت عنها ..

هذه الدلالة الخطيرة .. هى أن الشعب المصرى مفطور على الحرية .. لايخنع للظلم ولا يصير على الضيم .. فهذا المواطن المصرى يتجشم المشقة ووعثاء السفر ليذهب إلى حيث عاصمة الخلافة ، ليرفع مظلمته إلى أمير المؤمنين .. رافضًا أن يستكين لظلم لحق به .. حتى لو كان هذا الظلم يتمثل فى مجرد ضربة غيظ من ابن حاكم مصر وفاتحها عمرو بن العاص .. إن الإحساس بالحرية أصيل فى نفوس المصريين .. بل لقد فطن عمرو منذ البداية إلى هذه الحقيقة فحبس المصرى ليمنعه من الذهاب إلى الخليفة .. كان يعرف مقدمًا أن هذا المصرى لن يستكين لاعتداء لحق به مهما كان طفيفًا .. ولكن الظلم عند المصرى هو الظلم مهما خف وزنه أو ثقل حجمه .. ثم انظر إلى دلالة كون المصرى قد رفض أن يضرب عمرًا مكتفيًا بضرب ابنه « قد ضربت من ضربنى » ، رفض أن يتمادى فى استعمال حقه ، وأمير المؤمنين ذاته هو الذى يحمى له هذا الحق ويطالبه بممارسته ... إن المصرى لايسكت على الاعتداء عليه ولكن أصالته الحضارية تعصمه من أن يدفعه الحقد لأن يتجاوز الحدود المعقولة . فيتطرف فى القصاص أو يسرف فى الانتقام بالعظمة الإسلام .. وأنعم بأصالة مصر !!

هاتف من الأندلس :

ينزف قلبى الدم وتجتاحنى تعاسة ضاغطة .. لاحد لضراوتها .. كلما سمعت أو قرأت هذه الأنباء التى تتوالى من العالم العربى حولنا .. ماذا جرى لنا .. دم .. دم .. دم .. مجازر واغتيالات .. ودسائس ومؤامرات وانقلابات .. ولكن .. أن تكون عربيا هذا قدرك وتكوينك .. تراثك .. انتماؤك .. نبضاتك كل ماتتنفسه .. ولكنى أتعذب بهذا الذى يحدث كأننى مسئول عنه .. كأننى الذى اقترفته .. أهناك خلل ما فى تكويننا .. فى تركيبنا ؟ لا أعرف .. لا أعرف .. كل الذى أعرفه أننى أتعذب أتعذب .. ماهذا الذى يحدث فى شرقنا العربى وفوق هذا اتهامات .. أطنان من الكلمات .. ولو قرأنا كل الصحف التى تصدر فى عالمنا العربى فمعنى هذا أننا كلنا خونة .. وكلنا عملاء لدى الغير جميعنا يبيع !!

ألا يمكن أن يلتقى العقل العربى عند شىء واحد .. تتضافر من أجله الجهود .. تتركز حوله كل الطاقات وماعداه من التفاصيل غير الأساسية يصبح مجالا للاختلاف والاجتهاد ؟.. أكتب علينا أن تنمو حياتنا فى وجه الدم والاختلافات والاتهامات ؟ ألا من شىء ينقذ العالم العربى من نفسه أولا ؟

قرأت منذ أيام الطبعة الجديدة من رواية « هاتف من الأندلس » التى كتبها المرحوم الشاعر على الجارم .. الرواية تدور حول حكاية

ولادة بنت المستكفى ، وعلاقتها بالشاعر ابن زيدون .. لست هنا فى مجال الحديث عن الرواية .. ولكننى من خلال القراءة أطالع الحقيقة التى تقول ما أشبه اليوم بالبارحة .. اختلف عرب الأندلس فضاعت الأندلس .. تفرقوا إلى دويلات ممزقة تكيد لبعضها وتتآمر على بعضها فانقض عليهم العدو . والتهمهم واحدة إثر واحدة .. ودالت دولة لو بقيت لما كان مصير الشرق العربى مانراه اليوم .. ولتجنب كل التداعيات التى حدثت بعد طرد العرب من أسبانيا .. فهل نأخذ من التاريخ عبرته .. اقرءوا معى هذه الكلمات التى يقولها على الجارم على لسان ابن زيدون فى رواية « هاتف من الأندلس » .. عساها تذكرنا بشىء ، وتدعونا لأن نعتصم بحبل الله ، فننقذ عروبتنا من خطر قادم لو استمر الحال على هذا المنوال : .

« لقد ضاعت الأندلس وتبدد بها ملك كان بهجة الدنيا .. وزينة الدهور وانفصمت تلك العروة العربية التى جمعت الآراء على رأى ، وجعلت من الزنود المفتولة زندًا . ومن السيوف الصارمة سيفًا . فأصبح العرب بعد انحلالهم فى هذه الجزيرة النائية بددًا كالشياه فتك الذئاب برعاتها . فهامت فى بيداء الخوف والجوع لاتسكن إلى ظل ولاتأوى إلى سياج .. لقد نزلنا فى هذه الجزيرة فى قلة من العدد والسلاح . ولكن كنا من عزائمنا وإيماننا بالحق فى جيش لجب . وقوة تزلزل الجبال . لن أذكر طارقًا فإن إقدامه ودهاءه أصبحا

مضرب الأمثال . ولاتزال الإفرنجة حولنا تروى حديث وثوبه على الأندلس وقلوبهم ترتجف فزعًا . إعرابى فى اثنى عشر ألفا من البربر والعرب ، أقوى سلاح لهم سيف مثلوم أو رمح محطم ، يهجمون على جيش لذريق ، وهو كأمواج البحر ، ثم لاتنثنى لهم عزيمة ولا تجيش لهم نفس . حتى يكتب لهم الظفر وتعود سيوفهم ضاحكة إلى أغمادها ؟ فأين هذه القوة ؟ وأين هذه الغنائم ؟ وأين ذلك الروح الإسلامى العاصف الذى لم تقف أمامه أسوار ، ولم تصعب عليه أبراج، ولو كانت تتلفع بأردية السحاب ؟ ليتنا نتوقف عند دلالة الكلمات ونعيها .. ليتنا نحكم الله والعقل فيما يشجر بيننا .. وإلا فالخطر داهم والويل قادم .. وليس لنا أن نعيب زماننا .. فما لزماننا - كما يقول المتنبى - عيب سوانا .

مصر تقاتل إلى يوم القيامة :

هؤلاء الذين يتآمرون على مصر ويشهرون بها .. ويطلقون إذاعاتهم وصحفهم ليل نهار بالمفتريات عليها .. والمحزن أن هؤلاء ينتمون للإسلام دينًا ، وللعروبة وطنًا .. ومع ذلك ينطلقون فى العداء لمصر إلى حد الالتقاء مع المخططات الأجنبية التى ترمى إلى حصارها وعزلها .. وتجريدهم للعرب من قوتها وإمكاناتها .

وياليتهم يعلمون أنه إذا سقطت مصر أو ضعفت .. سقط العرب

جميعًا وضعف العرب جميعًا .. إن مصر للعرب هى الحصن وللإسلام هى الدرع .. ودونكم المعارك المصيرية التى خاضتها الأمة العربية ، وابحثوا عن دور مصر فيها .. فاتقوا الله فى مصر .. تتقوه فى أنفسكم .. حاذروا عليها تحاذروا على أنفسكم .. فلم يكن مبالغًا هذا الشاعر الذى قال :

أنـا إن قـدر الإلـه مـاتى
لاتر الشرق يـرفع الـرأس بعدى

لا أقول هذا لأننى مصرى .. بل لأننى عربى .. ولو كنت من وهران ما اختلف قولى عن هذا .. ولو كنت من مكناس لقلت نفس ماقلته .. ولو كنت من حلب ما اختلف قولى .. ولو كنت من النجف ما اختلف قولى .. هذه خواطر أثارها كتاب جديد للأديب الأستاذ عبد التواب يوسف ، بعنوان « عمرو فى مصر » .. وأتوقف عند كلمات .. وأتساءل كيف نسيها بعض العرب ، ها هو ذانبيكم محمد ﷺ ، يحدثكم عن مصر قبل أن تصبح مسلمة وقبل أن تصير عربية : « إذا فتح الله عليكم بعدى « مصر » ، فاتخذوا منها جندا كثيفًا .. فذلك الجند خير أجناد الأرض .. لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة » ماذا بعد شهادة محمد ﷺ ؟ « خير أجناد الأرض » وفى « فى رباط إلى يوم القيامة » ، إنها نبوءة هذا العظيم .. ستظل مصر تقاتل عن الإسلام وعن العروبة إلى يوم

القيامة .. وتذكروا كلماته ﷺ : « مصر كنانة الله فى أرضه .. ما كاد أهلها أحد إلا كفاهم الله تعالى مؤونته » . فيا من تكيدون لها ارعووا وثوبوا إلى الرشد .. فكل من يكيد لمصر يرتد السهم إلى نحره .. هكذا تنبأ محمد العظيم ﷺ .. وليس هو بالذى يقول لغوا .. وليس هو بالذى ينطق عن الهوى .. وصدق حافظ إذ يقول :

مـا رمـانى رام وراح سـليـمـا
من قـديم عنـايـة الله جنـدى

لم تكن مصر للإسلام حماية ، وللعروبة سيفًا ودرعًا فحسب .. ولم تكن للحضارة العربية عقلا وفكرًا فحسب . بل كانت على مدى تاريخها أرض عطاء ، وسنابل بذل للجميع حولها .. يذكرنا هذا الكتاب بعام « الرمادة » يوم عم القحط .. وتعرضت جزيرة العرب للجوع والكرب . ويكتب الخليفة العظيم عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فاتح مصر وحاكمها . أما بعد .. فلعمرى ياعمرو ماتبالى إذا شبعت أنت ومن معك من أهلك .. أن أهلك أنا ومن معى .. فياغوثاه ثم ياغوثاه !! حاشاها مصر .. كيف يطيب لها الشبع وأرض الإسلام جائعة كيف تستمرئ النعيم وبلاد الإسلام قحط .. ما أسرع ماتلبى النداء وتبذل الغوث .. ويكتب ابن العاص إلى الخليفة : « يالبيك ثم يالبيك .. لقد بعثت إليك بعير ..

أولها عندك .. وآخرها عندى ، » واقعة نسوقها للذين يعايرون مصر بأزمتها الاقتصادية .. وهم يعرفون أنها أزمة عارضة فغدًا تسترد مصر عافيتها .. ويزدهر اقتصادها .. ويعم الرخاء أرضها ، وسوف تبذل كعادتها ، وتعطى كدأبها .. فأبدًا أبدًا لن يخذل الله كنانته .

مصر... من أجل العروبة ذاتها!

لا تستطيع قوة فى الدنيا مهما زعقت بالوهم. ومهما تشنجت بالحقد، أن تجرد مصر من عروبتها، وتعوقها عن ارتياد الطريق الحضارى لتخليص العروبة من ورطتها، وليست عروبة مصر فرمانًا تصدره الغرائز المندفعة فى غيبة العقل، ولا قرارًا يمليه الالتباث فى مؤتمرات المتاهة وفقدان الوعى، فمصر عربية ليس بشهادة التاريخ والتراث واللغة والثقافة والوجدان والمصير فحسب، بل فوق هذا بما أعطته للعروبة من امتداد وتأصيل ودم، وبذل وصل يومًا إلى حد أن تنسى نفسها وتجور على ذاتها، فحتى اسمها العريق العظيم.. اسمها الذى هتف به التاريخ وهجت به الحضارة قبل أن تكون بعض الأمم نطفة فى رحم الزمن، وبعض

الدول مجرد أخاديد فى خريطة الكون، اسمها العظيم الذى باركه القرآن وكل كتاب من لدن السماء.. اسمها الذى لم يذكره التاريخ أبدًا إلا فى مجال ما هو حضارى وشريف ونبيل، فلم يتردد هذا الاسم أبداً فى موضع خيانة ولا خديعة ولا مؤامرة، فليس فى تاريخ مصر «حجاج» يقطف الرءوس ولا «سفاح» يحصد الأرواح، ولا رهط خان إمامه، بل كانت عاصماً للإسلام وللعروبة فى كل مرحلة تعرض فيها الإسلام لهجمة، وتعرضت فيها العروبة لمحنة، وكانت الأمن لكل لاجىء.. والحماية لكل مستجير!!

ليس فى تاريخها كربلاء، ولكن عين جالوت، ليس فى تاريخها «لدّورملة»، ولكن عندها الصمود فى الفالوجا والعبور فى رمضان، ليس عندها أيلول الأسود ولا تل زعتر، ولكن فى رحابها جامعات تقدم العلم، وأرض تقدم الأمن، وسواعد تبنى الحضارة فوق كل أرض عربية، حتى اسمها هذا العظيم الذى تدين له كل أمة على وجه الأرض بشىء أخذته من وطن هذا الاسم.. خلعته يومًا ما قربانًا للعروبة!!

ولكن إذا كانت مصر اليوم تمر بمرحلة حلم شريف تتطلع من خلاله إلى تخوم المستقبل الذى يعادل عظمتها.. تعويضًا لما فقدت فى غمار التضحية للعروبة فأنا أعتقد أن هذا الحلم لا يتحقق إلا من خلال تأصيل الذات المصرية عن طريق الوعى بها، وانطلاقًا من هذا فعلينا أن نرسخ فى وجدان أبناء. مصر وعى

المعرفة بها حضارة وتراثًا واقعًا وإمكانًا، إن تأصيل المصرية بالوعى مقترنًا بتلقائية العاطفة، وبالبحث عن جذور الذات وتبيان قسماتها الحضارية، مهمة لابد أن تكون واردة ضمن خطتنا لبناء مصر الـ... ولهذا فأنا أطالب بإنشاء جهاز قومى يضم خيرة العناصر المثقفة... كل مجال، تكون مهمته الأساسية هى تقديم مصر بكل الوس... المتاحة.. بالكتاب والصورة والكلمة المسموعة والوسائل الدرامية والتعبيرية، تقديم مصر من خلال دورها الحضارى فى كل طور من أطوار التاريخ، دورها فى العلم وفى الفن وفى الفكر خصوصًا ما أضافته من خلال شخصيتها المنفردة.. للثقافة الإسلامية والتراث العربى، لا أنادى بهذا دعوة للانعزالية الإقليمية، فهذا ما لا يمكن أن تغفره مصر لأحد، إنما أقوله لمصلحة العروبة ذاتها، فعندما تنطلق من المصرى قواه الكامنة المبدعة، التى سيفجرها وعيه بذاته وحجم دوره، فسوف يكون هذا رصيدًا للعروبة ولمصلحتها فكل مرحلة كانت فيها مصر شامخة كانت ديار العرب منيعة. وما استبيحت أرض عربية إلا يوم كانت مصر واهنة!

بدون تراث العروبة
.. ماذا يبقى لنـــا ؟!

إذا كنت قد ألحقت فى الدعوة إلى أن تكون لنا خطة ثقافية هدفها الأول هو تأصيل الشخصية المصرية وإبراز قسماتها الحضارية وتجسيد خصائصها ومكوناتها وتكثيف الرؤية إلى مدى ما أضافته للمسيرة الإنسانية الحضارية والتراث العربى بصفة خاصة .. فأنا لم أفعل هذا مستهدفًا الانسلاخ من العروبة .. أو جعل المصرية بديلا عنها أو مقابلا لها .. برغم ما نعانيه من غوغائية بعض الأنظمة العربية ، وانسياقها إلى عنتريات جوفاء تنكبت طريق العقل ومنطق الحضارة .. وليس من أصالة مصر ولا دأبها أن تكون ردود الفعل لديها من نفس مستوى تصرفات الآخرين .. فكيف يمكن للإنسان أن يخرج من جلده ، أو أن يتنكر لهويته .. فمهما حاول الإنسان أن

يتقمص شخصية غير ذاته، أو أن يرتدى مسوحًا لا تخصه فلن يكون إلا مسخًا مشوهًا يثير السخرية.

لقد كانت دعوتى أساسًا نابعة من حب لمصر يذكيه الإيمان الجارف بالعروبة انتماء ومصيرًا.. العروبة التى أضافت لها مصر كمًا جعلها تمتد وتتواصل وتمتنع على كل الهجمات الضارية التى استهدفت إبادة الحضارة العربية.. وكان منطلقى أن تأصيل الشخصية المصرية ثقافيًا سيكون عاملا له فاعليته فى إنهاء التخلف عندما يتحول هذا التأصيل إلى طاقة فعل روحية لمواجهة المستقبل اجتلابًا لواقع مغاير أفضل.. يصبح بالحتمية مدخرًا للعروبة عندما تصحح اتجاه حركتها، لتمضى محفوفة بالوعى الحضارى، لتأخذ مكانتها من خريطة العصر.. وأن تأخذها بالجدارة والاستحقاق والإضافة والفعل.. بدلا من مجرد وجود يفرض ضغوطاً مؤقتة نتيجة لظروف دولية طارئة، أو ثراء زائف لم يتبلور فى إنجازات حضارية راسخة، تتيح لقامة العروبة الراهنة أن تكون فى مستوى قامة تاريخها.. وفى اعتقادى أن عملية تأصيل الشخصية المصرية ستتيح للعروبة ولوعيها الغائب الإيمان بأن مصر القوية المتحضرة هى امتدادها ورصيدها فى مواجهة الخطر وفى مواجهة القوى الماثلة والمستترة والتى تترصد للعروبة منتظرة فرصة الانقضاض النهائى. ومهما تكن تداعيات المواقف فلابد أن يكون الحوار الحضارى هو

الوسيلة الأساسية لكشف ما هو أفضل الطرق التى يجب أن تسلكها الأمة العربية للخروج من ورطتها ذات الأوجه المتعددة، وعلى مصر بالذات أن تعصم نفسها من الانسياق إلى متاهات غيبوبة الوعى .. ولقد راعتنى دعوة متسرعة وصلت فى جموحها إلى حد إنكار عروبة مصر ذاتها .. وهذا زعم غير علمى وغير موضوعى لا يحتاج إسقاطه إلى كبير عناء .. ولست هنا فى مجال تفنيده، فلا يمكننى أن أسوق من الحجج أكثر مما فعل غيرى .. ولكنى أطرح مجرد سؤال .. أنا الإنسان المصرى ابن التراث العربى وقد امتلأ وعائى، وتشكل محتواى، وتشبعت أنفاس وجودى بكل ما هو عربى، فى تاريخى على مدى القرون .. بكل ما وفد منه وبكل ما أضفته أنا إليه .. أنا ابن رشد، وابن خلدون وشوقى وجبران، وعزيز أباظة، وإسعاف النشاشيبى، والرصافى، والجواهرى، وطه حسين، والعقاد، وميخائيل نعيمة. أنا الذى أتنفس الإسلام وجودًا وأتلو القرآن بيانًا عربيًا وأواجه المواقف والأحداث بإمدادات ثقافتى العربية .. أنا إذا أفرغت من كل هذا، فماذا يبقى لى من تراث أملأ به وعاء ذاتى ؟ إن الوطن تاريخ وثقافة وتراث وامتداد فى هذا التراث .. فكيف يمكننا الارتداد أو النكوص للانتماء إلى شىء ليست لدينا أية قناة توصيل إليه ليتحول إلى وجود ماثل ممتد فينا .. فليعلم إذن الذين يستهدفون جرنا قسرًا إلى الانتماء إلى غير عروبتنا. أن المحاولة فاشلة .. لأن طبيعة الأشياء تؤكد أن كل

عملية محكومة بقوانينها .. ولا يمكن لأية دعوة تستهدف هذا أن تفرض علينا ما يتجاوز احترامنا للثقافة الإنسانية ، والاغتراف منها بما يضيف إلى مكونات الذات .. من أى مصدر جاءت هذه الثقافة .

دعوة إلى تعريب العلوم

هذا الكتاب الذى قدمه للمكتبة العربية الدكتور أحمد مطلوب، الأستاذ بجامعتى بغداد والكويت، ووزير الثقافة العراقى الأسبق، يعتبر من أهم الكتب والدراسات التى قدمها أنصار تعريب العلوم الجامعية فى عالمنا العربى.. فقد أحاط الكتاب بقضية التعريب بكل أبعادها وأطوارها. وقدم من خلال المنطق العلمى والأسانيد الوجيهة الحيثيات التى من أجلها تصبح قضية التعريب ضرورة حتمية للمستقبل الحضارى للأمة العربية.. إن الكتاب بمنهجه وشمولية نظرته دعوة جادة مخلصة تضاف إلى دعوات تدافعت منذ فجر النهضة تحث على التعريب فى عالمنا العربى، خدمة للانطلاقة العلمية، وتأكيدًا للذات القومية وإعطائها كل المقومات التى تكفل

ضمان مسيرتها نحو الغد اللائق بماضيها العريق، وهو بحق أحد الإسهامات المخلصة فى هذا المجال لتعميق الدعوة وإضفاء الشرعية العلمية عليها.

من البداية يؤكد لنا المؤلف بأن هذا البحث لم يكتب لأساتذة اللغة والأدب.. لأنهم أدرى به وهو قضيتهم، كذلك لم يكتب للشامتين بالأمة العربية ولغتها لأنهم أهون شأنًا من أن يلتفت إليهم.. ولكنه أساسًا كتب لأساتذة العلوم المؤمنين باللغة العربية ودورها فى خدمة العلم وتطويره. ودعوة التعريب كما يذكرنا مؤلف الكتاب ليست بنت هذا العصر. وإنما هى وليدة قرون موغلة منذ الجاهلية بالتحديد، حينما وفدت على العربية ألفاظ من لغات أخرى. وتمكن الذوق العربى برهافته من صقل تلك الألفاظ وتهذيبها، حتى صارت جزءاً من اللغة العربية، متناسقة مع أبنيتها وصيغها. وغدت لا يكاد يعرف الأصول المنبثقة من صلبها إلا علماء اللغات وحدهم.. وحينما أطلت الحياة العربية بعد الإسلام على آفاق أخرى، كان التعريب معلمًا من معالم الحضارة العربية الجديدة والتقدم فى العلوم والآداب.. ولما كانت الترجمة ذات فعالية فى هذه الحضارة.. فقد احتاج المترجمون إلى المصطلحات والألفاظ التى تعبر عن المعانى الجديدة والمصطلحات الغربية. ونجح العرب فى مواكبة التطور الحضارى. وقدموا للعلم إضافة ظلت متألقة حتى عصر النهضة الأوربية. وقد اعتمدوا فى ذلك أولا: على وضع كلمات

عربية لما طرأ على حياتهم من تقدم علمى وحضارى، معتمدين فى ذلك على إمكاناتهم فى تنمية اللغة وتطويرها .. ولما كانت لغتهم ذات ثراء وإمكانات غير محدودة، فقد أمدتهم بكثير مما احتاجوا إليه. ثانياً: تعريب الكلمات واستعمالها بعد صقلها وتهذيبها لتجرى مجرى كلامهم أو قريبة من ذوقهم اللغوى.

ثم حدث أن أصيب العرب بالتخلف الذى يدرك كل أمة تفقد طريقها للتقدم. وظلوا أمدًا طويلا لا يضيفون إلى الحياة ما يدفع بها إلى التطور.. إلى أن جاء فجر النهضة الحديثة عندما اتصلوا بالغرب، وفوجئوا بأشياء تحدث فى العالم حولهم وهم فى سباتهم يغطون.. وقام الرواد بمحاولة التعرف على الحضارة الحديثة واكتشاف السبل المؤدية إليها.. ثم نقلها والأخذ بأسبابها. وعندما وجدوا أن المصطلحات العربية لا تسعفهم كثيرًا رجعوا إلى وسائل نمو اللغة، وأخذوا بها على حذر فى البداية. ثم توسعوا بعد أن أجازت مجامع اللغة كثيرًا من التوسع.. وبعد ذلك لجئوا إلى التعريب عندما عجزوا عن وضع مصطلح عربى الأصول والسمات.. وبدأت هذه المصطلحات تأخذ دورها فى الترجمة والتأليف. وبذلك امتلك الأساتذة والباحثون ناصية اللغة وكانت لكثير منهم دراسات عميقة تشهد على قدرتهم وقدرة اللغة العربية على التعبير عن حياة العصر، وحاجات التقدم العلمى المتواصل.

وكان لأساتذة العلوم الحديثة فضل لا ينكر فى هذا المجال بجانب المجامع اللغوية والمؤسسات العلمية.

لكن المؤلف يؤكد لنا أن الطريق مازال طويلا .. فما برح العلم يتقدم. راكضًا نحو آفاق جديدة، وماتزال معظم الجامعات العربية تدرس العلوم باللغات الأجنبية. ومن أجل هذا كتب المؤلف دراسته تلك لتكون دعوة تحفز إلى تعريب العلوم فى الجامعات .. وقام المؤلف بتفنيد دعاوى مغلوطة تزعم أن اللغة العربية عاجزة عن الأخذ بأسباب الحضارة والتقدم العلمى .. حتى لتكاد تصبح هذه الدعاوى بمثابة الحقائق عند البعض فى عالمنا العربى .. بجانب زعم آخر هو صعوبة التدريس باللغة العربية فى الجامعات.

ولما كانت القضية ما تزال فى شد وجذب على حد تعبير الدكتور المؤلف. فقد عمد من جانبه إلى متابعة القضية منذ ظهورها على مدى الحقب .. ووضع أيدينا على حقائق أن اللغة العربية كانت منذ أواخر الجاهلية تنمو وتزدهر وتؤكد قدرتها على التطور.. وكانت اللهجات تلتقى لتصب فى نهر الفصاحة الخالد. ثم جاء القرآن الكريم كتاب الله العظيم. ولم يقف فى بيانه عند ما كان معروفاً فى لغة العرب .. فقد نقل الألفاظ إلى معان جديدة لم تكن دلالتها معروفة بالمعنى الإسلامى، وكانت أحاديث الرسول أيضًا حافلة بالتعبيرات الجديدة، والألفاظ ذات الدلالات الإسلامية ثم انتشر الإسلام .. وزحف العرب إلى الأمصار الأخرى، وتدافع الاهتمام

بتدوين اللغة والشعر ، ووضع علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض . وكان لابد أن يكون لكل علم مصطلحه . ونمت مئات المصطلحات فى هذه البيئة العلمية وهى عربية أصلا نشأت من المعنى اللغوى المعروف . لكنها استقرت فى معنى جديد لم يكن معروفاً من قبل . ولما كانت الأمة العربية غير مقصورة البيان فحسب ، بل كان لها اهتمامها بالعلوم ، فقد اهتمت بالترجمة عن اللغات الأخرى مثل : اليونانية ، والفارسية ، والهندية .. ولم تكن الترجمة ميسرة تمامًا ، فهى تمس علومًا لم يعرفها العرب . وكان على المترجمين أن يضعوا للمعانى الجديدة مصطلحات تفى بالغرض وتخدم الهدف .

وبعد أن يستفيض المؤلف فى ذكر المحاولات المشهورة فى هذا المجال ينتهى إلى التأكيد بأن اللغة العربية مطواعة للتعبير عن متطلبات الحياة . وأن غيرها من اللغات لا يتسم بشىء تعجز هى عنه .. كل ما فى الأمر أن القدماء من العرب أخلصوا النية .. وصدقوا العمل .. أما نحن فقد تقاعسنا نكتفى بأن ينظر البعض منا إلى الماضى نظرة الاعتزاز والبعض الآخر ينظر نظرة الاستخفاف فى حين واصلت الأمم الأخرى تطويع لغاتها لمقتضيات تقدمها .. حتى أصبح لهذه اللغات شأنها العظيم .

وحين بدأنا الاتصال بالعالم من جديد ، اكتشف العرب أن حياتهم لابد أن تتغير وأن واقعهم لابد أن يتطور .

وانطلقت الطلائع الرائدة فى حركة إحياء لما كان ، بجانب

الأخذ من الغرب إضافة تساعد على ما يجب أن يكون.

وبدأت الروح العلمية التى همدت تنشط من جديد.. وينوه مؤلفنا فى كتابه بدور أسماء رائدة، ومجلات طليعية أخذت على عواتقها عملية التنشيط وإذكاء الروح الجديدة أسماء: أحمد فارس الشدياق، وخليل اليازجى، ونجيب الحداد، وشاكر شقير، وبشارة زلزل، ويعقوب صرّوف، وسليمان البستانى، وأمين المعلوف، وإبراهيم اليازجى، وكذلك مجلات: المقتطف، والمشرق والبيان، والضياء، بجانب مجلات ومطبوعات المجامع اللغوية والمؤسسات العملية.

وكان من الممكن أن يمضى النهج فى طريقه الطبيعى، فالمعاهد العلمية التى قامت فى عصر النهضة مثل مدرسة القصر العينى، كانت تدرس الطب باللغة العربية.. وفى بيروت درست الجامعة الأمريكية الطب باللغة العربية أيضًا.. ولكن الاستعمار استهدف القضاء على الأمة العربية بواسطة القضاء على لغتها أو تجميدها، فتوقف التدريس باللغة العربية تماما.. ولكن كلية الطب بدمشق أصرت على التدريس باللغة العربية، ومازالت تفعل ذلك منذ أربعين عامًا.. ولم تسمع هناك شكاية عن عجز اللغة العربية عن ملاحقة كل جديد يفد إلى علم الطب.. ثم توالى فى العالم العربى صدور المعاجم فى الطب والعلوم والزراعة، واكتسبت الدعوة إلى التعريب أرضية عريضة شاسعة.. فها هوالمجمع العلمى بدمشق يواصل جهوده،

ومجمع اللغة العربية بالقاهرة يقوم بجهود عظيمة فى هذا المجال.. وكذلك المجمع العلمى العراقى.. أما المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربى بالرباط، فهو يقوم أيضًا بدور كبير فى حركة التعريب ووضع المصطلحات، وأصدر لهذا الغرض مجلة «اللسان العربى» ووضع مشروع معاجم الرياضيات والكيمياء والنبات والحيوان والفيزياء بالعربية والفرنسية والإنجليزية. وكذلك تقوم جامعة الدول العربية ولجنتها الثقافية ببذل جهود كبيرة فى خدمة قضية التعريب.

وإذا كانت مهمة التدريس بالعربية تلقى على عواتق أساتذة العلوم، فلا يعنى ذلك أن أساتذة اللغة والأدب لا دور لهم فى ذلك.. إنهم أساسًا حماة اللغة، وعليهم المشاركة فى عملية التعريب ومساندتها لأن القضية تخصهم قبل كل شىء.. المهم أن تظل حركة تنقية اللغة فى هذا العصر فعالة، وأن يكون لها نفس دورها السابق عندما اتصلت اللغة العربية باللغات الأخرى.

هذا عرض يدور فى الحقيقة على هامش صلب القضية التى قدمها الكتاب بإحاطة علمية متمكنة. حيث أبرزها بكل زواياها وأبعادها. وإذا كان الدكتور الباحث قد نوه لنا فى مقدمته على أن البحث يهدف إلى ثلاثة أمور فى التعريب.

الأول: أن التدريس باللغة العربية فى الجامعات قضية قومية تخص العرب كلهم. وأن الإعراض عنها تنكر للأمة وطعن فى أهم

مقوماتها. ومن استبدل لغة بلغته خسر قوميته وفقد كيانه.

الثانى: أن التدريس بالعربية يدفع إلى التقدم، ويخدم العلم ويخلق أجيالا قادرة على الفهم الدقيق والتطور، لأن اللغة لا تنفصل عن التفكير. ومن فكر بلغته كان أقدر من غيره على العمل والإبداع.

الثالث: أن التدريس بالعربية يشيع العلم بين الناس. فقد انتهى ذلك الزمان الذى كان العلم فيه ملكًا لطبقة خاصة. وكان الإسلام قد دعا إلى العلم منذ قرون. وفضل الله الذين يعلمون وكرم العلماء، وهو ما تسمى إليه الشعوب الناهضة فى هذا العصر.

وفى نهاية البحث يضع أمامنا هذه النتائج:

أن التعريب قضية قومية ينبغى أن تكون هدف كل عربى، لأنه يحقق طموح الأمة فى الحرية والاستقلال وييسر العلوم ويشيعها بين الناس.

أن التعريب ليس صدى لدعوة المختصين فى اللغة والأدب. بل هو استجابة لتطلعات الأمة ولذلك جاءت المقترحات والآراء فى هذا البحث تطرح تصورًا لعله يضع بين يدى الباحثين بعض الحلول النافعة ويدفع الآخرين إلى المشاركة فى التعريب.

أن اللغة العربية قادرة على استيعاب العلوم ومظاهر الحضارة الجديدة بما فيها من طاقات ووسائل تساعد على النمو والازدهار. وأن ما توصف به من عقم ينبغى أن يتبدد ويزول وقد دل التاريخ

البعيد والقريب على زيف ذلك الوهم. وأظهرت الدراسات ما للعرب قديماً وحديثاً من نهضة علمية استجابت لها اللغة وسارت على مدى القرون.

أن العرب - قديماً وحديثاً - لم يقفوا من العلوم وقفة المنكر، أو وقفة المبهور، وإنما شاركوا فيها، وكان لهم فضل لا ينكر فى تقدم الحضارة الإنسانية بما قدموا من جديد، وألفوا من كتب، ووضعوا من معاجم علمية.

أن الصعوبات التى يعرضها الباحثون والشبهات التى يثيرها المغرضون لا تثبت أمام الواقع، وقد أوضح هذا البحث أسباب الصعوبات ودوافع الشبهات.. ووضع تصوراً ينبع من الإيمان بالأمة العربية وقدرتها العجيبة على التعبير عن الحياة الجديدة والتقدم العلمى الكبير.

أن أساتذة العلوم والمؤمنين بأمتهم ولغتهم ينظرون إلى التعريب نظرة إجلال وإكبار. ويودون أن تتحقق أمنيتهم فى وقت قصير. ولكنهم مفرقون لا يجدون المؤسسة التى تأخذ بيدهم وتنير لهم السبيل.. ولذلك كانت الدعوة إلى أن تعنى الحكومات بالتعريب وأن تكون قراراتها بداية للعمل والسير نحو تحقيق الأهداف.

وأخيراً هذا كتاب من أهم الكتب التى تخدم قضية التعريب فى وطننا.. بل قضية ثقافتنا وحضارتنا ومصيرنا القومى على وجه العموم.

تعريب العقول .. قبل تعريب الألسنة !!

يثير هذا الكتاب الذى صدر بالجزائر لمولود قاسم الذى كان وزيرا للتعليم الأصلى والشئون الدينية - بعنوان « آنية وأصالة » قضايا بالغة الأهمية .. متعددة ومتنوعة ، وبرغم أن الكاتب ينطلق أساسًا من أرضية الواقع الجزائرى بعد الاستقلال .. حيث واجهت الجزائر المستقلة الكثير من التحديات والمشاكل .. فإن الكتاب برغم هذا يتجاوز بيئته ويعالج مسائل تتعدى تراب الجزائر .. إلى واقع العالم العربى بأسره .. ومن هنا تأتى أهميته .

وبرغم كثرة القضايا التى يتعرض لها الكتاب .. فإن هذه القضايا تدور حول محور واحد هو ؛ « كيف نكون أبناء عصرنا .. مع الحفاظ على أديم مصرنا .. ودون أن نصبح نسخة من غيرنا »

ولقد ركز الكاتب على قضية التعريب وأهميتها بالنسبة لمستقبل الجزائر العربية المسلمة كما ركز على قضية اللغة ودورها فى تكوين شخصية الأمة .. ولما كانت قضية اللغة ذات أهمية بالنسبة لمستقبلنا العربى الحضارى أجدنى هنا مهتمًا بهذا الجانب من الكتاب برغم أهمية القضايا الأخرى التى يتعرض لها .

يوضح لنا الكاتب مفهومه عن الأصالة بأنها ليست الانغلاق والتجمد بل هى بقاء الإنسان راسخ الجذور فى تربته .. مع الاستفادة باحتكاكه بالغير ومسايرته للركب الإنسانى فيما ينسجم مع عناصر ذاتيته ويتناغم مع مكونات شخصيته .. إذ بتغيره هذا يكون عنصرًا يقدم إسهامه للفكر الإنسانى والحضارة العالمية . وبدونه لايثريها بشىء ولا يقدم الإنسانية قيد شبر .. والكاتب يذكرنا بحقيقة أن الحضارة البشرية والفكر الإنسانى عمل جماعى تساهم فيه جميع الشعوب أو أغلبها .. وكل منها يضيف قسطه على تعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة .. ويمثل الكل لوحة تشارك فيها ألوان مختلفة . تعطيها ريشة فنان عبقرى سمة الوحدة والانسجام برغم تمايز ألوانها وانعكاساتها وظلالها .. أو بمعنى آخر سيمفونية تعزفها فرقة موسيقية بألحان متعددة متنوعة .. يأتى كل واحد منها بنغمته المتميزة عن الأخرى . ولكنها تتكامل لتشكل سيمفونية متناغمة جميلة طابعها الوحدة والتنوع معًا .. وهكذا هى الحضارة .

ويخلص الكاتب من هذا إلى القول بأن الأصالة ليست هى

الخمود فى الزمان والخمود فى المكان والتقوقع حول النفس والانغلاق دون الغير .. ولكن فى ذات الوقت فإن التفتح والعالمية إذا لم يقوما على الأنيه والأصالة يصبح صاحبها ضائعًا مستأصلا لا متأصلا . بغير جذور عميقة ودون شخصية مميزة . ويصبح معرضًا للأعاصير تقتلعه وللزوابع تذروه .. ويكون مصيره التبعية المنساقة .

* كانت مهمة الجزائر بعد الاستقلال بالغة الصعوبة .. فالاستعمار الذى كابدته ليس مجرد احتلال عسكرى ، مهما يفعل ، فإنه يترك للأمة لغتها وتقاليدها وثقافتها وتراثها .. ولكن الاستعمار بالنسبة للجزائر كان عملية إبادة تامة لكل مقومات الشخصية الجزائرية وإفنائها فى الشخصية الفرنسية ولغتها وثقافتها ، فقد كان التخطيط قائمًا على أن تكون الجزائر بالذات امتدادا لفرنسا .. ومن هنا كان على الجزائر المستقلة أن تعيد للشعب قبل كل شىء لغته .. ومنذ الاستقلال والأجهزة المعنية تبذل جهودًا جبارة من أجل نجاح هذه المهمة وسط تيارات تقاوم وأخرى تهبط . وأصبحت قضية التعريب قضية سياسية بكل ماتعنيه أبعاد الكلمة .. حتى أن الصحافة عندما طرح مشروع الميثاق الوطنى للاستفتاء - فى عهد الرئيس الراحل هوارى بومدين - كانت تنشر شعارات تقول : تأييدك للميثاق نجاح لمهمة التعريب .. ولقد ركز الميثاق ذاته على تلك القضية تركيزًا بالغًا واعتبرها قضية سياسية ، لأن الذين يقاومون التعريب تنطوى خلف ذرائعهم أهداف سياسية خبيثة .

وها هو ذا الرئيس هوارى بومدين يقول ضمن خطابه عشية اختتام الندوة الوطنية لإعداد مشروع الميثاق بعد أن أكد أن الجزائر مسلمة وسوف تبقى كذلك .

« فيما يتعلق باللغة القومية يجب أن يكون واضحًا أن سيادة اللغة العربية لاشك فيها ولا منازع لها ، وهى إن صح التعبير سيدة لاتقبل أن تكون لها ضرة وأقصد بالضرة اللغة الفرنسية » .

بل إن الرئيس رفض الانسياق لمنطق اللهجات المحلية » هناك دعاة اللهجات المحلية واللغات الدارجة التى تختلف من جهة إلى أخرى شرقًا وغربًا وجنوبًا ولكن السؤال : ما الذى سيبقى من الرابطة القومية بعد خمسين سنة إذا كان استعمال اللهجات الدارجة هو القاعدة وفهم لهجة محلية لمنطقة قد يتعسر على سكان منطقة أخرى بل إننا نعجز عن التفاهم مع الإخوة فى دمشق أو العراق أو مصر إذا استخدم كل منهم لهجته المحلية فى التخاطب ؟

ونعود إلى كتابنا .. بعد أن تحدث المؤلف عن ضرورة التعريب وقيمته لبناء كيان الأمة نراه يشير إلى عملية أخرى لابد أن تمضى مع التعريب بل قبله .. عملية تعريب الأمخاخ والقلوب عند طائفة معينة نجح الاستعمار فى أن يمسخ ذواتهم ، وأن ينفث فيها سمومه ، ويقسم المؤلف هذه الطائفة إلى ثلاثة نماذج .. نموذج يزعم أن العربية لم تعد تصلح إلا للمسجد .. مثلما أصبحت اللاتينية للكنيسة .. وأنها عاجزة عن التعبير عن إيقاع العصر ومصطلحاته الحديثة .. أما

النموذج الثانى فينظر نظرة الشك إلى العربية ومكانتها بين اللغات العالمية الكبرى .. وهذا النموذج لا يهاجم العربية علانية مثل النموذج الأول وإنما يكتفون بإساءة معاملتها والتعبير عن شفقتهم لذويها والاستعلاء عليهم وإشعارهم بأنهم مساكين يرثى لهم .. أما النموذج الثالث وهو الأقل خطرًا ، فإنه بحسن نية دأب على أن يستعمل منطق المستعمر ومصطلحاته كأنما عجزت العربية عن إمداده بالتعبير الملائم أو المصطلح المناسب .

اللغة فى ميدان القتال أيضًا !

* يحدثنا المؤلف عن أهمية اللغة .. إنها ليست مجرد الصورة الخارجية للتفكير والإحساس ، بل هى أكثر من هذا .. إنها تلك الصورة التى تعطى محتواها شكلا ولونًا وقوامًا إنها ذلك التيار الذى يبعث الروح فى جميع أركان الوطن .. بل ذلك الأسمنت الذى يضمن وحدة البنيان القومى الذى بدون تلاحمه لا يمكن أن يقوم أى كيان لأمة من الأمم .

لقد أكد الإسلام هذه القيمة الجوهرية للغة .. فالعرب لأنهم أمة تعتز بلغتها وتفاخر بجمالها وتراثها فقد أنزل الله القرآن العظيم بصفة إعجازية لهم .. وكانت اللغة أهم أسلحة الرسول فى التغلب على عنجهية الجاهلية .

ثم يستشهد المؤلف بالتاريخ الحديث ، ليرينا كيف لعبت اللغة دورًا رئيسيًا فى تكوين شخصية الأمم المعاصرة .. ألم تكن اللغة ذات فعالية فى انبعاث شخصية الأمة التشيكوسلوفاكية فى مواجهة احتقار النمسويين والألمان لهذه اللغة ووصفها بأنها مجرد لهجة أفظاظ .. وذلك لتحقير الأمة وتراثها وبعث الإحساس بالنقص فى نفوس بنيها .. ولكن هذا كان من أهم دوافع هذه الأمة للنهوض .

وانطلاقًا من أهمية اللغة واعترافا بدورها فى تكوين شخصية الأمة نجد صحيفة « لوموند » الفرنسية تقوم منذ سنوات بحملة تستهدف مقاومة تسرب الكلمات الأوربية الأجنبية إلى الفرنسية . واعتبرت ذلك خطرا لايتهدد هذه اللغة فحسب ، بل يتهدد الأمة الفرنسية ذاتها !

وعندما كانت ألمانيا ممزقة إلى دويلات تتعرض لغزو نابليون وقف « فيخته » الفيلسوف الألمانى يستنهض الأمة الألمانية ، ويطالبها بالحفاظ على لغتها ، ويرى أنها العامل الأهم فى استقلال ألمانيا ووحدتها .. وأنها القديرة وحدها على إعادة شمل الأمة الممزقة إلى ٣٠ دويلة وولاية .. ألم يكن بيانه « خطاب إلى الأمة الألمانية » الذى ركز فيه على اللغة الألمانية عاملا فعالا فى استنهاض ألمانيا من جديد ، ودفعها إلى مقاومة الغزو .. لقد ألقى بيانه وبعده مباشرة ذهب إلى جبهة القتال .

شغل عرب :

* هناك التهمة التقليدية العقيمة التى تواجه العربية وهى أنها لغة غير علمية .. ينبرى المؤلف لتفنيد هذا الزعم مستخدمًا التاريخ . حيث برهنت العربية فى الماضى على أنها سيدة اللغات ولغة العلوم .. ومن الحق أنها فعلت ذلك بامتزاجها بالحضارات الأخرى الآفلة والقائمة .. ولو كانت العربية عاجزة عن العلمية ..فكيف استطاع ابن رشد أن يؤثر فى مجرى الفلسفة الغربية ؟ وكيف كانت كتب الفارابى فى الموسيقى تدرس هناك ؟، ألم يكن كتاب « القانون » فى الطب يدرس فى جامعة لوفان ببلجيكا حتى نهاية العقد الأول من هذا القرن ؟

ألا يؤكد علمية هذه اللغة أن الرياضيات الحديثة مازالت تستعمل الأرقام بشكلها وأحيانًا بالرسم العربى ؟ والجبر .. أليست كلمة عربية أساسًا لاتزال تستعمل حتى اليوم فى كل اللغات الأوربية ؟ ألم يذكر « باخ » صراحة أنه تأثر بالموسيقى العربية وخصوصًا بآلة العود العربية ؟ وفى علوم النبات والكيمياء والجغرافيا والعسكرية كلمات ومصطلحات لم تستطع اللغات الأوربية أن تتخلص منها حتى الآن .

يفطن المؤلف إلى اعتراض من الممكن أن ينبرى ليقول .. هذه حكايات قديمة ونحن الآن فى عصرنا هذا نريد لغة تكون أداة تعبير

موفقة عن الوضع الحالى للعلوم المتطورة حيث تجمدت العربية وأصبحت متأخرة ، وهنا يرد المؤلف اللغة العربية ليست هى المتأخرة .. وإنما الذين يتكلمونها . فاللغة مرآة المتكلم بها .. وليست الألفاظ العلمية غير اصطلاحات . وإذا كانت أوربا قد أنفقت عدة قرون من أجل التحرر من اللاتينية وتكوين لغات متفرعة فنحن لسنا فى حاجة إلى كل ذلك ، لأن عربية ابن رشد ، والمويلحى ، والإدريسى ، وابن الهيثم ، والخوارزمى ، والرازى ، والبيرونى ، لاتزال صالحة للتعبير عن نفس العلوم مع إضافة الاصطلاحات المتجددة تبعًا لحدوثها وتطور العلوم والآلات . فقد أثبتت العربية أنها غير اللاتينية ، وأن لها من تراثها وقدرتها على الاشتقاق وطواعيتها للتوليد وقابليتها للامتصاص وتقاليدها العلمية مايجعلها تفى بكل احتياج .

أما الذين يدعون إلى تطوير اللهجات العامية فى الأقاليم العربية والذين يدعون إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتسهيل القراءة والاستغناء عن التنوين ، فهؤلاء يستحقون ماوصفهم به المستشرق المجرى الدكتور عبد الكريم جرمانوس بأنهم لا فكرة لهم عن علم اللغة ولا علم اللغات المقارن .. وأنهم جهلة وجهلة خطرون !

ينتهى المؤلف إلى أن العربية لغة حية . ولكن المطلوب هو تلقيح الأدمغة العربية باللغة العربية الحية .. لغة الفارابى ، وابن سينا ،

وابن حيان ، وابن خلدون .. لغة بل عربية « فريدريك الثانى » الذى كان يفاخر بأنه يجيد العربية بطلاقة ليثبت للعصر تحضره .. لقد كانوا فى أوربا عندما يبهرون بالشىء العربى يقولون « شغل عرب » .

جودة اللغة :

وعندما يحدثنا المؤلف – فى معرض غيرته على اللغة العربية – عن الجهود الدائبة التى تبذلها الأمم المتقدمة من أجل الحفاظ على لغاتها وحمايتها ، يثير أشجاننا بل أحزاننا . فها نحن أولاء نواجه ظاهرة ضعف مستوى اللغة العربية عند أغلب الخريجين من أبناء جامعاتنا .. ألا يخجلنا أن يضرب لنا الكاتب مثلا من خبر نشرته صحيفة « دى فيلت » الألمانية تحت عنوان « لابكالوريا مع ضعيف » ، ومضمون الخبر أن طالبة فى الصف الثانوى سقطت فى امتحان البكالوريا ، لأنها حصلت على تقديرات ضعيفة فى اللغة الألمانية ، وهنا رفعت قضية ضد أكاديميتها أمام محكمة « فرانكفورت » تطالب باعتبارها ناجحة .. ولكن المحكمة أيدت سقوطها . وهنا رفعت الأمر إلى المحكمة الإدارية العليا فى كاشل « ضد مقاطعة » « هيش » حيث لجنة الامتحانات .. ولكن المحكمة الفيدرالية أصدرت هى الأخرى حكمها بتأييد الحكم السابق .. وجاء فى حيثيات الحكم أن اللغة ليست مسألة هينة لأنها تتصل

بهياكل الفكر ، وبالتالى تعتبر أهم مادة فى الامتحان ولا يمكن التجاوز عن ضعفها .

ولماذا نذهب بعيدا .. أمامنا إسرئيل .. فقد تمكنت من إحياء لغة منقرضة اندثرت منذ مايقرب من ألفى سنة .. ألم تكن لغة أغلبية المهاجرين إلى فلسطين هى لغة « اليديش » التى تجمع أبناء المانيا والنمسا وبولونيا وروسيا وأوربا الشرقية عامة . ولكنهم جميعًا أقلعوا عنها ليحيوا لغة مندثرة هى العبرية وبرغم ما فى هذا من افتعال ، فإنهم استطاعوا أن يقنعوا العالم بأن هذا الوجه هو الطابع الأساسى والأكثر إقناعًا بوجود إسرائيل كدولة وأمة .

ألا يعتبر ماقاله المؤلف هنا ردًّا على كل الذين يحاولون بخس اللغة العربية حقها ، سواء بسوء نية أو بحسن نية . وخصوصًا دعاة اللغة المحلية .. فمنذ عام تقريبًا قرأت حديثًا للكاتب الجزائرى كاتب ياسين ، نشرته صحيفة الأنوار البيروتية وجاء فيه قوله : « لكى نتحدث مع الشعب ، لابد أولا أن نفهم لغته ، ولغة الشعب هى اللغة المحلية .. اللغة الدارجة التى تفتقت عنها عبقريته . لا اللغة الكلاسيكية المحفوظة فى الكتب لغة المعاجم .. وربما هناك من يقول بأن اللغة العربية الفصحى كفيلة بأن توطد علاقتنا مع الشعوب العربية الأخرى .. ولكن كيف السبيل إليها ونحن شعب حديث الاستقلال . شعب لم يتمكن بعد من هذه اللغة ولابد له من وقت حتى يألفها » .

دعوة إلى العقل

هناك من يتهمنا نحن العرب بأننا عادة ننفى العقل خارج محيط تصرفاتنا ، وأننا غالبًا ما نستجيب لأهوائنا الذاتية .. حتى ماتعارض منها مع منطق العقل لأن الاستجابة لهذه الأهواء تكون مريحة .. أما الإذعان لإرادة العقل فقد يكون على حساب المنازع والأهواء والعواطف . وبرغم هذا فإن الطريق الأسلم هو طريق العقل .. مهما كلفنا ركوب الصعب .. قد أجد الارتياح عندما استجيب لأهوائى ولكنها قد تقذف بى إلى التهلكة أو تؤدى بى إلى الهاوية .

وهذا الكتاب الذى سأحدثك عنه هنا هو دعوة إلى العقل ليكون المرشد لحياتنا .. والضوء الذى يمكننا من أن نكشف العلاج

لمشاكلنا .. والتخلص مما يرين على حياتنا الفكرية والإجتماعية من أدواء لابد أن تقضى عليها أولا إذا كنا جادين حقًا فى إخراج مجتمعنا من أزمة التخلف التى يعانيها ، وصولا إلى نهضة تمكننا من أن نكون قوة فاعلة مؤثرة فى مسيرة هذا العصر .

هذا الكتاب الذى يأتى بمثابة دعوة للعقل هو للدكتور زكى نجيب محمود بعنوان (مجتمع جديد أو الكارثة) ، وقد يختلف بعضنا مع الدكتور زكى فى رؤيته لواقعنا .. بل قد يختلف هذا البعض معه أساسًا فى الأرضية التى تنطلق منها هذه الرؤية .. ولكن أحدًا لايستطيع أن ينكر عليه جديته .. وصدقه مع ضميره الفكرى ومع نفسه . كما لا أحد ينكر عليه حقيقة ما يضع يده عليه من علل ومشاكل ، وإذا اختلفنا مع ما يقدمه من طرائق العلاج لهذه العلل وتلك المشاكل ..فإنه يبقى له دائماً فضيلة الشجاعة فى التعرض لهذه العلل والمشاكل وجها لوجه بدون اللف والدوران حولها .

ولقد عالج فى هذا الكتاب كثرة من المشاكل الاجتماعية والفكرية التى يعانى منها المجتمع العربى .. ولكن أهم ماسيطر على موضوعات الكتاب هو الإلحاح فى استعمال العقل وحده فى التعرض لكل مايتعلق بنواحى حياتنا .. ورد الظواهر إلى أصولها يقول الدكتور (إن أعجب ما يلفت النظر فى طبيعة الإنسان .. أن الناس إذا اختلف بعضهم مع بعض على شىء تولاه العقل بالتحليل والحساب ، لم يغضب أحد منهم على أحد بل إنهم يراجعون تحليلهم

وحسابهم مرة أخرى حتى يذعن المخطئ للمصيب . أما إذا اختلفوا على شيء فى غير ميدان العقل .. شيء تولته العواطف والأهواء ، فلا أمل عندئذ فى اقناع أو اقتناع . وقد تمتد الخصومة بينهم إلى حد القتال ، فكأنما يسهل عليهم أن يتنازلوا عن الرأى الذى يرونه بعقولهم .. ولا يسهل عليهم أن يفرطوا فى ما مالت بهم إليه عواطفهم .. مع أن رؤية العقل هى مجال اليقين ، وأما ميل العاطفة فطريق معبأ بالضباب) ، وبناء على هذا فالدكتور زكى نجيب محمود يرى أنه لا ثمة جدوى من أن نردد كلمة العقل بألسنتنا دون أن نعى بها دلالة ماتعنيه الكلمة أو مايجب أن تعنيه . بعد ذلك نجده يؤكد أن نقطة البدء التى اندفعت منها نهضتنا العربية الحديثة .. هى لحظة أن دعا الدعاة إلى صحوة العقل فى وجه الموجة العاتية من الخرافة .. والخرافة كما يحددها الدكتور هى قبل كل شيء وبعد كل شيء .. (ربط المسببات بغير أسبابها) ويؤكد الدكتور أن عظمة الدين الإسلامى . أنه دين يدعو إلى العقل ويفجر إمكانات العقل .. ولا يعتمد على غير العقل .. ولهذا كان الامام محمد عبده هو أبرز الداعين إلى حكم العقل من بين رجال النهضة العربية الحديثة .. فقد أخذ بكل جهده يوضح العقائد الأساسية فى الإسلام توضيحًا يبين استنادها إلى منطق العقل .. وعنده أن الأصل الأول لهذا الدين الحنيف هو (النظر العقلى) ، وأن هذا النظر العقلى هو وحده وسيلة الإيمان الصحيح .. لأن الإسلام عند محمد عبده

يقاضينا إلى العقل .. ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته . ذلك هو الأصل الأول من أصول الإسلام .

ومن قبل قالها حجة الإسلام الإمام الغزالى (إن لنا معيارًا فى التأويل .. وهو أن مادل شطر العقل ودليله على بطلان ظاهرة . علمنا ضرورة أن المراد غير ذلك) ويعلق زكى نجيب محمود بقوله : (هذا هو تراثنا إذا أردتم من التراث هاديا)، ثم حكى لنا واقعة من تاريخ الإسلام .. فعندما هم الإمام على بن أبى طالب بالمضى لمقاتلة الخوارج جاءه أحد المنجمين من الذين يدعون القدرة على اكتشاف الغيب .. ونصحه هذا المنجم بألا يسير إلى القتال فى الساعة التى كان الخليفة قد حددها للخروج .. وأشار عليه بتوقيت آخر ، وإلا فإن الهزيمة ستحيق به . فما كان من الإمام إلا أن عنف هذا المنجم تعنيفا بالغًا . وخرج فى التوقيت الذى كان قد حدده من قبل ، وقاتل وانتصر .. وقال لرجاله وجنده لو كنا قد سرنا فى الساعة التى حددها المنجم وانتصرنا . لقال الناس بأن النصر قد تحقق بفضل ذلك المنجم ونبوءته ، (أما إنه ما كان لمحمد ﷺ مُنجم . ولا لنا من بعده) .

بعد هذا يسوق لنا أيضا تفسير الإمام محمد عبده (للحسد) .. وعنده أن هذا الحسد ليس مجرد نظرة ينظر بها الحاسد إلى المحسود ..لأن النظرة وحدها لاتحرك ذرة من مكانها ، فكيف يمكن أن تصيب أحدًا فى ماله أو عياله أو صحته .. ولهذا فإن القائل بمثل

هذا يجافى منطق العقل .. لأنه يرد النتائج إلى غير أسبابها الصحيحة ، وبالتالى فهو يحتكم فى هذا إلى غير العقل ومنهجه فى التفكير والتعليل .. إذن ما هو التفسير الصحيح للحسد ؟ (أما إذا فهمنا الحسد على أنه فعل إيجابى يبذله الحاسد ليغيّر به من حالتك على النحو الذى يريدك أن تتغير به .. وهو بالطبع يفعل ذلك فى الخفاء ليهدمك من حيث لاتدرى ومن حيث لاتتخذ الحيطة اللازمة لدرء الخطر عن نفسك .. فإن مثل هذا الفهم يحيل الحوادث إلى تعليلها الذى يجيزه المنطق العقلى) .

ولكن هناك أشياء تحدث وهى تتحدى تعليل العقل . فماذا يكون الموقف منها إلى أى مصدر يمكن إذن أن نردها ؟ يسوق لنا الدكتور هذه الواقعة التى نشرتها إحدى الصحف الإنجليزية وتعليق أحد الكتاب الكبار عليها .. والواقعة تتعلق بمقارنة عجيبة بين الرئيس الأمريكى لنكولن والرئيس الأمريكى كيندى .. فالأول لنكولن قد اختير رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٦٠ ، أما الرئيس الثانى كيندى فقد اختير رئيسا عام ١٩٦٠ وكلاها مات فى حادثة اغتيال ، والذى تولى الرئاسة بعد مصرع لنكولن اسمه جونسون . وكذلك كان اسم من تولى الرئاسة بعد مقتل كيندى .. الأول انلدور جونسون ولدى عام ١٨٠٨ والثانى ليندون جونسون ولد عام ١٩٠٨ ، قاتل لنكولن ولد عام ١٨٣٩ وقاتل كيندى ولد عام ١٩٣٩ ، وأغرب من هذا أن كلا القاتلين قد اغتيل قبل

محاكمته .. وقبل اغتيال لنكولن نصحه سكرتيره الخاص - وكان اسمه كيندى - بألا يذهب تلك الليلة إلى المسرح حيث اغتيل هناك ، وكذلك نصح كيندى سكرتيره الخاص - وكان اسمه لنكولن - بألا يذهب إلى مدينة دالاس التى اغتيل بها ، وقد فر قاتل لنكولن إلى المسرح عندما اقترف جريمته واختبأ فى متجر وفرَّ قاتل كيندى من المتجر الذى اقترف منه جريمته واختبأ فى مسرح ..

ها نحن أمام مصادفات عجيبة وتطابق غريب فى الأعمار الأحداث والأسماء والأمكنة . ما هو الرأى فى واقعة مثل تلك .. أمام واقعة من هذا النوع ينقسم الناس عادة إلى قسمين .. أحدهما لايجد فيها أكثر من مصادفات لاتعنى شيئًا .. فلا هى تزيد من يقين العقل شيئًا ولاتنقص شيئًا ، أما القسم الآخر فيرد الأمر برمته إلى قوى خفية تفعل فعلها .. أما الكاتب الإنجليزى - لم يذكر الدكتور اسمه - فقد رد تلك المصادفات العجيبة إلى ما أسماه مبدأ (اللاسببية) فإذا كان مبدأ السببية يفسر المألوف .. فإن مبدأ اللا سببية يفسر الغريب .. ولكن الدكتور زكى نجيب محمود يتساءل ماذا يفيدنا هذا الزعم فى حياتنا العلمية وحياتنا العملية ؟

ثم يردف (ماكنت لأقف هذه الوقفة لولا أن بيتنا من يسرع إلى التحلل من قيد العقل كلما حدثت حادثة شذت عن مجرى الحوادث المألوف ..ألا إن الإنسان بخير ماجعل للعقل مجاله .

وللجوانب الأخرى مجالها فينعم بالمجالين معادون أن يبغى مجالا منهما على مجال) .

ولتأكيد اقتناعنا بضرورة تحكيم العقل وجعله المرجع الأساسى يسوق لنا الدكتور زكى نجيب محمود إجابة المفكر الإسلامى والشاعر الكبير محمد إقبال على السؤال الذى يقول : لماذا كان الدين الإسلامى هو آخر الديانات إن ذلك قد كان لأن الإسلام قد جعل التحكيم للعقل ، ولم يجعله لتقاليد الأسلاف . إذ لو كانت التقاليد هى مدار الحكم فيما يجوز وما لا يجوز ، لكان الناس بحاجة إلى رسول جديد كلما اقتضت ظروف الحياة الجديدة معايير جديدة غير المعايير التى جسدها الأسلاف فى تقاليدهم .. أما وقد أصبح الحكم للعقل .. فالعقل وحده كفيل بأن يجد الحكم الصحيح لكل ظرف جديد) ويضيف الدكتور .. وإذا قلت إن الأمر موكول للعقل فكأنما قلت بالتالى إنه ليس من حق أحد أن يقيم لنا النموذج الذى نسوق على غراره أفكارنا وأفعالنا ، إلا إذا كان من حق الآخرين كذلك أن يناقشوه .. وفى المناقشة قد تتعدد الآراء وتختلط وجهات النظر ..

ولكن .. حتى لايختلط الأمر على الناس بالنسبة للدعوة إلى العقل ، نراه يوضح مايعنيه بقوله : (على أن نصرة العقل لاتنفى أن يكون فى رحاب الحياة الإنسانية جوانب أخرى متروكة للعواطف ، فلا هى تعتدى على ميادين العقل ، ولا العقل بحاجة

إلى الاعتداء عليها ، فلم يقل أحد أن قيسًا أحب ليلاه بعقله بناء على تجارب المعامل وأرقام الإحصاء . ففى طبيعة الإنسان غرف كثيرة ويراد له أن يسكنها جميعا ليؤدى فى كل غرفة ما تتطلبه ظروفها . وحتى لو تصورنا تلك الغرف الكثيرة مفتوح بعضها على بعض ليتكون منها إنسان واحد ، فسوف تظل لكل غرفة ملامحها التى أميزها عن سواها .. فإذا كنت فى غرفة العقل تناقش موضوعا من موضوعات العلم أو من موضوعات الحياة العملية فلابد من التزام العقل بكل حدوده .. ولك بعد ذلك أن تدخل غرفة العواطف لتمرح فى رحابها حيث شئت فيها تكون العاطفة فيه هى الوسيلة أو الهدف)

وأمام هذا القول يتبادر سؤال .. هل النفس الإنسانية بهذا التبسيط حتى تحتمل هذا التقسيم . أم أن كل مايدور داخل الإنسان يختلط ويتشابك ويتفاعل بحيث يكون من العسير الفصل بينه فى خطوط وتقسيمات محددة تجعل لكل جانب منطقته ومساحته ؟

مهما يكن من أمر فهذا الكتاب الذى اخترت هنا بعض مقتطفات من محتواه .. هو دعوة لتنشيط العقل واستعماله وفى حالة الاتفاق معه أو الاختلاف يجب أن يكون الحوار هو مرجع هذا الاتفاق وهو وسيلة هذا الاختلاف .

السطو على العقول
أفدح من سرقة الجيوب

ما كنت أتصور أبداً أن يحدث هذا .. أن يسمح لإنسان ضميره بأن يضع اسمه على جهد غيره وكدح غيره ، فى مجال الإنتاج الأدبى والفكرى .. كانت تتناهى إلى شائعات من هذا القبيل ولكنى ما صدقتها أبداً ولا أخذتها مأخذًا جديًا .. كنت أحسبها مجرد (تشنيع) أو ثرثرة مجالس لا أكثر .. شىء مرذول أن يحدث الاغتصاب أو الانتحال أو السطو فى أى مجال من مجالات العمل الإنسانى .. أما فى مجال الأدب أو الفكر فليست هناك قوة فى الأرض تستطيع أن تقنعنى بأن هناك إنسانًا يقبل أن يضع اسمه على عمل أدبى أو فكرى لم يكابد مشقة تأليفه .. فالمتصل بالأدب حتى ولم يكن مبدعًا ، حتى ولو كان متمسحًا فيه ، فهو على الأقل ينتمى

إلى أرض طاهرة لها حرمتها، ولها قداستها.. فكيف يسمح له ضميره بالاغتصاب والكلمة عدل.. كيف يطاوعه ضميره على الانتحال والكلمة شرف.

لم أكن أتصور هذا حتى ولو تناهت إلىّ الشائعات عن هذا من أناس أثق من أنهم أبعد عن الإفك وفوق شهوة الافتراء.

ولكن قرأت ما جعلنى أراجع يقينى وما توهمته من أن كل ما هو فى مجال الأدب فهو طهر كله وهو العفة بأسرها.. فمؤخرًا صدر للأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود كتاب جديد بعنوان (مجتمع جديد أو الكارثة)، ولستِ هنا فى مجال الحديث عن هذا الكتاب بعرض القضايا التى أثارها فى مجال الثقافة والفكر وأوضاعنا الاجتماعية.. ولكن فصلا من فصول هذا الكتاب أقلقنى وأعادنى لتذكر الشائعات التى تتحدث عن أعمال أدبية ليست من إنتاج الذين وضعوا الأسماء عليها.. الفصل الذى أعنيه يتحدث عن رسالة تلقاها الدكتور المؤلف من أحد القراء، وتدور حول صفقات تتم فى الظلام وتنتهى إلى أن يحرم مؤلف العمل الأدبى أو الفكرى من انتساب العمل إليه لينسب إلى شخص آخر تحت ضغط النفوذ من جهة، وتحت ضغط الحاجة من جهة أخرى.

كاتب الرسالة يحدثنا عن طائر يسمونه (أبا زريق)، يقول عنه (الدميرى) بأنه طائر فى حجم اليمامة، حاد البصر يشبه صوته صوت البعير.. ويتخذ مأواه عن قرب من الأنهار والأماكن الكثيرة

المياه الملتفة الأشجار.. وله لون حسن وتدبير فى معاشه.. ويروى (الدميرى) كذلك نقلا عن أرسطو أن هذا الطائر ربما (أفصح) بالأصوات كالقمرى.. وربما (أبهم) كحمحمة الفرس.. ثم يستطرد كاتب الرسالة قائلا: لكن الذى لم يذكره الدميرى ولا أرسطو عن أبى رزيق هذا أنه ينهب حصاد غيره.. فغيره يعمل وهو الذى يحصد، فمثلا عندما يريد هذا الطائر أن يضع بيضه، فهو لا يكد كما تكد مخلوقات الله من الطيور لتنبى أعشاشها.. وإنما ينتظر وهو يراقب الطيور الأخرى الجادة العاملة حتى إذا وجد طائرًا منها قد فرغ لتوه من أقامة عشه بين غصون الشجر انتظر صاحبنا إلى أن تحين لحظة يغادر فيها هذا العش صاحبه الذى كدح فى إقامته.. وهنا يقفز هذا الانتهازى الماكر داخل العش ليبيض فيه.

وتمضى رسالة القارئ لتؤكد بأن هذا الطائر هناك من يفعل مثله فى المجالات الأدبية والفكرية وتحدث عن وقائع فى هذا المجال.. اتخذت صفة العموميات بلا تحديد، أعمال أو أسماء.. ولست أدرى أكانت رسالة القارى هى التى أغفلت التحديد أم أن الدكتور زكى نجيب محمود هو الذى عمد إلى هذا.

من الصور التى قدمتها الرسالة صورة لشاعر تصفه بأنه شاعر عظيم، له فى دنيا الشعر باع وذراع وقدم وساق، لا ينكر ذلك أحد عليه.. لكن لماذا لا يكون مفكرًا وباحثًا إلى جانب الشعر؟ وما دامت جبلته لا تحتمل التفكير والبحث فى بطون الكتب،

فوسيلة الوصول هى إغراء من يستطيع له ذلك، ولقد كانت له من دماثة الطبع وعذوبة الخلق وحلاوة اللفظ، مما يوقن به أن يشل الفريسة فلا يتحرك من بدنها شلو، إلا بعد أن يتحقق له منها ما يريد، وما هو إلا أن يصعد الشاعر العظيم منبر المحاضرة، ليلقى على السامعين رائعة فكرية جديدة جاءهم بها، ثم لا تلبث الصحف والمجلات أن تنشر الخبر بنصه وفصه ومن ذا الذى يجرؤ على أن يشيع فى الناس أن محاضرة الشاعر العظيم كانت حصادًا لزرع أنبته سواه؟ وإذا هو أشاعها فمن الذى يصدقه؟

أما من هو الشاعر فهذا ما لم تقله الرسالة أو هذا مالم يقله الدكتور زكى نجيب محمود.. ويختتم الدكتور هذا الفصل الذى يتحدث عن الإقطاع الفكرى فى حياتنا الثقافية بأنه تمنى بعد قراءة هذا الخطاب أن يجد الطريق إلى كاتبه ليستحلفه بالله.. أحقًا هذه كلها صور من الإقطاع الفكرى نعيش فى ظلامه.. وبرغم أن الموضوع مجرد رسالة من قارئ يصفها الدكتور بأنها تتقطر مرارة.. وكأن كاتبها ملأ قلمه بنقيع الحنظل ولم يملؤه بمداد: إلا أن لهجة الدكتور ذاتها من خلال عرضه لصور الرسالة تؤكد بأن هذا يحدث فعلا.. وأنه شخصيًا يعرف الكثير.. وإلى هنا والمسألة مجرد احتمالات.

ولكن كتابًا آخر صدر فى نفس الأسبوع للأستاذ أنيس منصور، ذكر لنا واقعة محددة جعلتنى أجد تفسيراً للحرارة فى لهجة الدكتور

زكى نجيب محمود، وهو يعرض للصور التى تضمنتها رسالة القارئ الذى كان يتحدث عنه فى كتابه (مجتمع جديد أو الكارثة)، فقد كان أنيس منصور يتحدث عن عملية استلاب تعرض لها الدكتور زكى ذاته.

من هنا عرفت سر المرارة التى كانت تشيع من كلمات الدكتور زكى نجيب محمود، فى عرضه لرسالة القارئ الذى رسم صورًا للإقطاع الفكرى فى حياتنا.. إذن لقد تعرض هو ذاته لهذه العملية.. وأن كاتبًا كبيرًا وقتها، قد سمح له ضميره أن يضع اسمه على مادة كدح فيها غيره، كشريك له بغير فعل ولا جهد.. لمجرد أنه الناشر.. وأنه صاحب اسم كبير؟

من يدرى ربما كانت حياتنا الأدبية والفكرية تحمل فى جعبتها المتوارية الكثير من الأسرار، وربما تكشف لنا الأيام عن أسماء - ربما كانت مجهولة - صنعت مجد العمالقة!

ويبقى السؤال.. كيف يسمح الضمير العلمى وشرف الكلمة بهذا؟.

مشكلة تهدّد الثقافة

إن القضية التى سأعرض لها هنا. قضية التصاعد المتزايد والمخيف فى أسعار الكتب الثقافية. يجب ألا ينظر إليها باستهانة.. وألا يذهب ما سأقوله بشأنها بددًا فى متاهات الصمت.. لأنى أجدها قضية بالغة الخطورة، ليس بالنسبة لحياتنا الثقافية.. بل إنها تتجاوز التخوم إلى المستقبل الثقافى وتنطوى على تهديد للمستقبل الحضارى لهذه الأمة.. التى لابد أن يتاح لها من التقدم ما يؤهلها لأن تكون قامتها متعادلة مع مستوى العصر.. حيث كانت على مدى تاريخها الحضارى.. منارة إشعاع ومركز ضوء.. وأرض إضافة للمعرفة الإنسانية بمختلف نوعياتها وأجناسها وضروبها.

وانطلاقًا من هذا وتأسيسًا عليه.. فإن قضية سعر الكتاب الثقافى

يجب أن تؤرق كل من يعنيه مستقبل هذه الأمة .. من أية زاوية ينطلق منها تصوره لهذا المستقبل .. فالحضارة لا يمكن أن تتفجر بغير ثقافة تمهد لها وتواكبها وتحدوها وتؤصلها ، ومن الحق أن تأصيل المناخ الحضارى وتنمية الروح التقدمية .. يعتمد على وسائل متعددة ومتباينة .. ولكن الكتاب يبقى فى النهاية وعلى الدوام هو أهم هذه الوسائل وأكثرها فاعلية وجدوى .. لأن الكتاب هو عمدة هذه الوسائل ودوننا الأمم المتقدمة فى عصرنا هذا الراكض نحو آفاق المعرفة .. قد نجد أن وسائل المعرفة متعددة السبل .. مكفولة الوفرة .. ولكن الكتاب يظل برغم كل هذا هو محور هذه الوسائل . ومركز انطلاقها .. من خلاله تتجمع جزئياتها وتتبلور شموليتها !

وعندما أرصد وأتابع ما يصدر لدينا من كتب من دور النشر المختلفة .. يجتاحنى قلق رهيب بالنسبة لأسعار هذه الكتب .. هذه الأسعار التى تجعل عملية انتشار هذه الكتب مستحيلة إلا بالنسبة لفئة قادرة أو متخصصة .. وليس هذا القلق مصدره أن هذه الأسعار تحرمنى من فرص قراءة كتب ، أجد بعضها ضرورة حياة بالنسبة لوجودى كإنسان ، لابد أن يلم بمعارف عصره .. وأن يكون له حظ إثراء وجوده بتراث عصور سالفة .. وأن يحقق ذاته عن طريق الثقافة .. وأن يجدد بها على الدوام خلايا عقله !!!

لا لست من هذه الزاوية أنظر إلى المشكلة .. وإن كانت واردة ضمن ما يؤرقنى .. ولكن فى الحقيقة ينبع من نظرتى إلى بعيد ..

أليست هذه الأسعار الباهظة كفيلة بصرف الناس عن القراءة ؟.. خصوصًا بالنسبة لشعب، الذين يقبلون على القراءة منه هم من فئات محدودة الإمكانات المادية، برغم أن عليهم يقع عبء تطوير المجتمع والتأثير فى بنيته الأساسية .. وإذا وضعنا فى الاعتبار أن هناك وسائل بديلة يمكن أن تعطى وهم التعويض .. عن القراءة ..وسائل أصبحت بمثابة الشراك الخادعة .. تتمثل فى الصحافة .. والإذاعة والتليفزيون والسينما وأشرطة الكاسيت .. هذه الوسائل التى هى بطبيعتها لا تستطيع أن تقدم إلا ما هو محدود .. هذا إذا راعت الضمير والخلق فى مهمتها، فما بالك وهى غالبًا - كما نراها - لا تفعل إلا أن تلهث وراء الإثارة والسطحى والموقوت .. وإشباع أشياء قد تكون مطلوبة .. ولكنها ليست الشىء الأساسى فى بناء الإنسان الحقيقى .. والحضارة الحقيقية .. إذ تنبهنا لهذا أمكننا أن ندرك مدى خطورة أن تكون هذه الوسائل هى البديل لعملية القراءة الجادة .. ومدى خطورة أن يظل سعر الكتاب مرتفعًا ودافعًا بالناس إلى هذه البدائل التى تعطى وهم التعويض !!!

أليس معنى العجز عن شراء الكتاب، هو أن تدفع الحياة بجيل غير مثقف وكيف يمكن أن نبنى وطنًا حضاريًا بغير ثقافة مكفولة ومتاحة.

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن القراءة هى هواية مرحلة الشباب وأن هذه المرحلة هى ربيع القراءة .. وأنها المرحلة التى تتأصل فيها هذه

العادة حتى نهاية العمر .. فكيف يمكن أن ننتظر من شرائح الشباب عندنا أن يقبلوا على القراءة وهم يعتمدون على ميزانية ذويهم غالبًا .. ومن أين لهم أن يلاحقوا ما يصدر عن كتب بهذه الأسعار الباهظة !!!

وأتذكر مرحلة إقبالى على القراءة .. وأنا ابن أسرة متوسطة الحال ، محدودة الإمكانات .. ولكن برغم هذا ، فإن سعر الكتاب أيامها كان يتيح لما أوفره من مصروفى فرصة لإشباع نزوعى إلى القراءة .. كانت هناك أيامها سلاسل متعددة تصدر عن دور نشر ودور صحف بقروش معدودة .. وأستطيع أن أعدد بعض هذه السلاسل التى كانت تعطينا بعض الثقافة ومدخلا إلى الثقافة بأسعار زهيدة .. وتحضرنى الآن : اقرأ .. وكتب للجميع وقصص للجميع .. ومختار النداء ، والقصة .. وكتاب الهلال .. وروايات الهلال .. وكتاب اليوم .. وقصة اليوم .. وروايات الجيب ، وكتابى ، ومطبوعات كتابى ، وغيرها من سلاسل كانت تصدر بقروش لا تستعصى على امكاناتنا فى مرحلة اليفاعة .وكانت هذه السلاسل كما قلت مدخلنا إلى الثقافة بمعناها الواسع بعد ذلك .. ولولا أنها كانت فى متناول قروشنا المحدودة ، ما كنا عرفنا القراءة إلا فى حدود ما تتيحه المدرسة !! وقد استمر الحال هكذا حتى مشارف الستينات كان الكتاب معقول السعر .. بل إن الهيئة المصرية للكتاب - كانت أيامها تسمى الدار المصرية على ما أذكر - أعطتنا مكتبة متنوعة من الثقافة وروائع

الأدب بقروش محدودة .. مكتبة من التراث وأعلام الفكر العربى والإسلامى .. وروائع القصص العالمى والمسرح العالمى .. وما كنا ندفعه فى عشرة كتب .. أصبحنا الآن ندفع أضعافه فى شراء كتاب واحد !!!

والحديث ذو شجون .. التقيت مؤخرًا بمجموعة من الشباب .. عرفت أنهم يحاولون تكوين مكتبة ثقافية فى إحدى مدن الصعيد عن طريق الجهود الذاتية .. وقد جاء وفد منهم إلى القاهرة لشراء بعض الكتب التى لا تصل هناك .. وانتقاء بعض الكتب المعروضة على سور الأزبكية .. ونفدت المدخرات التى جمعوها فى بضعة كتب حتمت الأهمية شراءها .. وحتى سور الأزبكية لم يعد كما كان من قبل – وها هو ذا قد ذهب نهائيا – . وكما كانوا يسمعون ، لقد تنبه باعة الكتب بالغريزة التجارية إلى أهمية بعض الكتب .. وهم يطلبون لها ثمنًا يعادل أضعاف سعرها القديم « زمان عندما كنت أهرع إلى القاهرة قادمًا من الصعيد ، لأتفسح فى الإجازة ، وأتعرف بالأدباء ، وأرتاد ندوات الأدب .. كان أهلى يحملوننى بعض « المقاطف » و« القفف » هدايا من خيرات الصعيد إلى أقربائهم فى القاهرة .. وكنت أعود وقد امتلأت « الفوارغ » بأكداس من الكتب أحصل عليها من فوق سور الأزبكية .. وشوارع شبرا وعربات الروبابكيا .. ولم تكن كل هذه الحمولة تكلفنى غير بضعة جنيهات !!

وأعود إلى هؤلاء الشبان .. لقد طلبوا منى أن أتوسط لهم عند

الكبار من الكتاب ليعطوهم مؤلفاتهم هدايا .. لأن بعض هذه الكتب مرتفعة السعر . وقد نفقت ميزانيتهم ، ولم يعد لديهم إلا أجر العودة بقطار الدرجة الثالثة .. وقبلت أن أقوم بالمهمة البغيضة .. وكانت الحصيلة موفقة بل إن بعض الأدباء لم تكن لديهم نسخ من مؤلفاتهم ، فقاموا بشرائها من المكتبات وأهدوها إليهم ! ولكن هل يحل هذا المشكلة على مستوى الوطن بأسره وهل تتحول القراءة إلى عملية شحاذة !!؟ .

خلال شهر رمضان كنت أتوقف عند معارض بعض دور النشر .. كان يحزننى أن ألاحظ أن بعض الشبان تلفت نظرهم بعض الكتب الهامة فيأخذون فى تقليب صفحاتها .. ولكنهم عندما يلقون النظرة الأخيرة على السعر المبين على الغلاف .. كانوا يعيدون الكتب إلى أماكنها ، ومن عيونهم تطل الخيبة .. وكنت أشعر أن ثمة يدًا تعصر قلبى !!

والآن ما هو الحل ؟.. من الحق أن تكلفة الكتاب أصبحت باهظة .. وليس من المعقول أن نطالب دور النشر بأن تخسر وتفلس وتعجز عن دفع أجور عمالها .

لا حل إذن إلا بأن تتدخل الدولة .. أن تبحث عن وسيلة لوصول الكتاب إلى الناس بسعر فى متناولهم .. إن الثقافة هى غذاء الروح والعقل والوجدان وقد أسلفت القول بأن الحضارة هى وليدة الثقافة ونتاجها .. إننى أدعو وزارة الثقافة إلى عقد مؤتمر لمناقشة

هذه المشكلة من كل جوانبها .. حتى نتلافى الأخطار التى يمكن أن تترتب عليها .. وهذا المؤتمر تشارك فيه وزارة الثقافة ، ودور النشر العامة والخاصة ، ووزارة الخزانة .. ومجلس الشعب .. والجامعة ، ونقابة الصحفيين ، واتحاد الكتاب ، ووزارة التربية . وذلك لمحاولة إيجاد حلول لأزمة الكتاب من حيث تيسيره . ومن حيث مادته .. ومن حيث الوسائل الكفيلة بخلق مناخ يشجع على القراءة ويؤصل عادتها .. وأن يتحول الكتاب إلى بند فى ميزانية الأسرة المصرية .

إن القضية كما قلت فى البداية بالغة الخطورة ويجب أن تعالج باهتمام يناسب خطرها !!

عندما تتحول المكتبات
إلى معارض أحذية

مهما تعددت وسائل المعرفة وعناصر تيسيرها. وسبل إتاحتها وفرص اكتسابها عن طريق الأجهزة الحديثة. فسيظل الكتاب من أهم الفعاليات لاكتساب هذه المعرفة.. يمكن أن تتباين الطرق وأن تتعدد الوسائل.. ولكن يبقى الكتاب هو أهم مصادر الثقافة تأثيرًا.. وأبعدها غورًا.. وحتى الوسائل الحديثة فى اعتمادها على مؤثرات مخترعة لم تستطع أن تلغى دور الكلمة تمامًا.. «فالتليفزيون» مثلا فى تركيزه على الصورة الموحية لم يستطع أن يستغنى عن الكلمة التى تشرح الصورة وتكثف دلالتها.. «الراديو» تشكل الكلمة المسموعة مادة بثه.

ونعود إلى القول بأن هذا كله لا يمكن أن يغنى الإنسان فى نزوعه

إلى الثقافة وبناء ذاته بواسطتها عن الكتاب .. لأن الكتاب هو وعاء المعرفة فى شمولها ورحابتها وتنوعها .

ولقد أثار أشجانى وأحزانى ما جاء فى عمود « أوراق محرر » للأستاذ ضرار القصير بالعدد رقم ٤٠١٢ من صحيفة « الرياض » حيث انطوت كلماته على ملاحظة ظاهرة خطيرة ، أصبحت ملموسة فى عالمنا العربى .. هى ظاهرة اضمحلال شأن الكتاب وتراجع السيادة المطلقة له .

وعندما نتأمل هبوط مستوى الثقافة لدى الأعداد الغفيرة التى تقذف بها جامعاتنا من خريجيها ، حيث نجد أن الأمية الثقافية متفشية بينهم بصورة متساوية .. لأن هؤلاء كان المفروض أن يكونوا هم عنوان الثقافة العريضة ورمزها .. عندما نتأمل ذلك تتضح خطورة الظاهرة التى تدعونا لأن نستفيق على الواقع المؤلم ، لملاقاة ذلك ودفعًا لخطره واتقاءً لشره ، فعندما يصبح مستوى الذين ستناط بهم قيادة الأمة فى مجالاتها المختلفة بهذه الضحالة الثقافية ، فهذا مؤشر يؤكد تفشى سطحية التفكير .. وبالتالى تفاهة الإنجاز .. ويتولد من هذا التخلف والتقهقر ، والتراجع عن ملاحقة العصر فى تقدمه .. والحضارة فى سرعتها . أليس الدليل على تراجع الكتاب فى عالمنا العربى هو أن بعض المكتبات فى عاصمة مثل القاهرة قد تحولت إلى محلات أحذية .. وها هو ذا الأستاذ ضرار القصير يقول لنا بأن بعض المكتبات فى المملكة قد أصبحت مجرد معارض

للمفروشات المكتبية !!.

أما سبب اضمحلال شأن الكتاب، فقد أرجعه الأستاذ ضرار القصير إلى كون بعض الوسائل الحديثة قد استلبت من الإنسان فائض، وقته .. ولم تترك موضعًا للكتاب فى حياته، وإذا كنت أوافقه فى اجتهاده بأن هذه الوسائل الحديثة قد تمكنت من أن تفعل هذا بجانب كبير من الجماهير فى عالمنا العربى .. حيث تراجع الكتاب .. وتوشك أن تنقرض عادة القراءة .. إذا كنت أتفق معه على هذا فى جزئية ما يتعلق بنا كعرب، ودليله - كما قلت - تحول بعض المكتبات إلى معارض مفروشات مكتبية فى الرياض، وإلى محلات أحذية فى القاهرة .. ولا أعرف إن كانت هذه الظاهرة قد انتشرت فى عواصم عربية أخرى .. أم لا.

ولكنى أعترض على اجتهاده فى تعميم الظاهرة - ظاهرة تراجع الكتاب - على العصر كله .. وبالتالى على العالم بمختلف أممه وأجناسه .. لا .. هذا التعميم يجب أن نتوقف عنده، لأنه يشكل خطرًا أن نستكين إلى تبرير يمكن أن ينتج من هذا التعميم القطعى .. تبرير أن تلك ظاهرة عامة لا تقتصر علينا وحدنا .. وأنه مرض قد ألم بالعصر عمومًا ولسنا وحدنا الذين أصبنا به .. وبالتالى يمكن أن ينبثق من هذا التبرير وهذا الإحساس بالعمومية تقاعس عن مواجهة الخطر والتصدى له. فالأب مثلا عندما يلاحظ انحراف ابنه وخروجه عن الجادة .. عندئذ ينبرى لتقويم هذا

الانحراف وإعادة ولده لما ينبغى أن يكون عليه السلوك القويم.. ولكن عندما يجد الانحراف هو القاعدة العامة.. وأن كل أبناء الناس حوله يمارسون الانحراف.. هنا سوف يتقاعس عن بذل الجهد، ويتكاسل عن محاولة التقويم وسيكتفى بأن يضرب كفًا على كف، ويكتفى بترديد قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وأنه جيل آخر زمن.. وغير ذلك مما يقال.. مما لا يدفع خطرًا ولا يوقى شرًّا !!.

لا يا أستاذ ضرار لا يمكن أن نوافقك على هذا.. ودوننا المجتمعات المتقدمة. إن وسائل اجتذاب المواطن عندها وإغراقه فى طوفان التعويض عن القراءة.. هذه الوسائل تفوق من حيث الكم والكيف أضعاف ما لدينا من وسائل مجتلبة.. ومع ذلك فإن هذه الوسائل لم تستطع أن تصرف الإنسان هناك عن نزوعه المتأصل للاستزادة من المعرفة عن طريق الكتاب، بل ربما كان بعضها يدفعه إلى ذلك دفعًا.. فعندما يقدم التليفزيون مثلا مادة علمية بطريقة جذابة ومشوقة، فهو بذلك يغرى المشاهد بالقراءة فى هذا المجال.. وعندما يقدم مسلسلا يعتمد على قصة ناجحة، فهو بذلك يغرى بالقراءة فى أدب القصة، وعندما تقدم السينما فيلمًا يدور حول وقائع تاريخية، فهى بذلك تجتذب المشاهد إلى قراءة التاريخ ودراسته.. وعندما يقدم «الراديو» تحليلا سياسيًّا لخبر ما أو حدث ما، فهو بذلك يدفع المستمع تلقائيًّا لأن يستزيد من الثقافة السياسية ليتمكن

من فهم تيارات السياسة وما يحدث فى العالم حوله.

ولهذا نجد أنه برغم تعدد وسائل المعلومات والتسلية والترويح، وهى من الكثرة بحيث كان يمكن أن تؤدى إلى وهم التعويض والاكتفاء.. إلا أن الإنسان الغربى مازال يعتبر الكتاب هو أصل المعرفة ومصدرها الأساسى.. وأن ما يتاح له من وسائل أخرى يعتبرها مجرد تكميل لدور الكتاب لا تعويضا عنه.. لقد قامت حضارته على المطبعة أساساً، والحضارة مهما تعددت الوسائل التى تجسدها والمستخرجة من أحشائها، فإن الكتاب هو منبعها.. وعندما تكثر الوسائل الميسرة فإنها لا تقضى فى تعددها على المصدر الأساسى.. إن الكتاب مازال بندًا ضمن بنود ميزانية الأسرة هناك.. أو ليس الدليل على هذا أن الكاتب أو المؤلف هناك يمكنه أن يعيش على مدى حياته فى وفرة من دخل الكتب المحدودة.. وربما كتاب واحد.. تدر عليه طبعاته المتوالية ومعدلات توزيعه ما يكفل له الاستقرار المادى ورفاهية العيش طوال عمره.. بل إن فيض هذا الكتاب يمتد إلى ورثته من بعده.. ألم يلمس بعضنا من الذين عاشوا فى الغرب هذا بأنفسهم.. ثم ألم يقرأ بعضنا عن هذا.. أما عندنا فأروني من هو الكاتب الذى استطاع أن يعتمد فى عيشه على القلم وحده، أفلم يكن الاحتراف للكتابة عندنا مرادفاً للبؤس والضياع فيقال عن صاحبها: «أدركته حرفة الأدب»، تعبيرًا عن سوء حاله وبؤس أمثاله!! معذرة الحديث ذو شجون، كما كان يقول زكى

مبارك رحمه الله .. هذا الكاتب الفذ العملاق الذى قدم للثقافة العربية ما أثراها بكتب مبدعة ومع ذلك مات معدمًا على الدرجة الثالثة .

نعم إن السبب فى تراجع الكتاب عندنا هو أجهزة الإعلام التى تقدم التسلية بدون ربطها بالمعرفة .. وتتفنن فى امتصاص فائض الوقت بإغراءات ليس هدفها بناء الإنسان وإثراء وجدانه وتزكية توقه إلى المعرفة .. ولهذا فهى فى النهاية تنتهى إلى تسطيح الإنسان العربى .. وتجعل أشواقه رخيصة واهتماماته تافهة .. وليس بمقدورها غير أن تعطينا إنسانًا لاشىء يهمه غير الثرثرة .. حتى ليمكن أن يشك الإنسان فى أن بعض الجهات فى عالمنا العربى تعمد إلى هذا بتخطيط مسبق .. وذلك لتغرق المواطن فى طوفان من الاهتمامات الرخيصة صرفًا له عن الوعى بما يحدث حوله !!.

لا أحد ينكر على أجهزة الإعلام والتوصيل حقها فى تقديم الترويح والتسلية والمتعة .

ولا أحد ينكر على المواطن حقه فى أن يتاح له ذلك فى عصر قلق مكروب .. ولكن بشرط أن يتم هذا من خلال رؤية إنسانية تستهدف إسعاد الإنسان ، لا تدمير روحه .. وألّا تكون النتيجة مجرد غثاء لا ينفع ولا يغنى من جوع .

علينا إذن أن ننظر إلى قضية الكتاب ونوعيته نظرة جادة تخرجه من محنته وتعيده إلى الصدارة .. لابد من غرس عادة القراءة فى

نفوس شبابنا وأجيالنا الجديدة .. وهناك تطل علينا قضية ارتفاع سعر الكتاب ارتفاعًا باهظًا .. بما يشكل عقبة يمكن أن تصرف الشباب فى بعض أقطارنا العربية عن القراءة إن قضية سعر الكتاب يجب أن تكون موضع اهتمام كل من يعنيه المستقبل الحضارى لهذه الأمة العريقة .. وعندما كنا صغارًا نشق طريقنا فى عالم المعرفة، كانت الكتب الثقافية الزهيدة السعر هى مدخلنا إلى عالم الثقافة الواسع بعد ذلك .. ولولا أن هذه الكتب كانت فى متناولنا بأسعارها التى تتناسب وقروشنا المحدودة، لكان توقنا إلى المعرفة قد واجه الإحباط والفشل.

إن قضية سعر الكتاب الأدبى أو الثقافى أو العلمى يجب أن تواجه مواجهة جادة من كل الحكومات فى عالمنا العربى .. نعم، إن تكلفة الكتاب أصبحت باهظة نظرًا للظروف الاقتصادية التى تسود العالم .. وهنا يجب أن تتدخل الدولة .. لقد أشار الأستاذ ضرار القصير . فى كلمته إلى كون الدولة تدعم بعض المواد الغذائية حرصًا منها على أن تكفل للمواطن حقه فى تغذية جسده بما تتلاءم وقدراته المادية .. وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .. إن الثقافة هى وسيلة بناء الروح وتغذيتها، ولا خير فى جسد صحيح بدون روح تكفل له ممارسته ووجوده وفقًا لمقتضيات دينه .. هذا الدين العظيم الذى يحث على المعرفة والعلم وكانت أول آيات وحيه دعوته للقراءة .. إننى أطالب هنا بأن تقدم الحكومات العربية دعمًا لدور النشر لديها،

تعويضًا لها عن تقديم الكتاب فى سعر يمكن كافة الناس من اقتنائه .. أو على الأقل تقوم الدولة بعملية اختيار لبعض الكتب المؤلفة والتى يجب ترجمتها من آداب الأمم الأخرى ، وتقوم بطبعها على نفقتها وتقدمها للقارئ بسعر فى متناوله ، بل بسعر يغرى بشرائها ، وأن تتحمل هى خسارة التكاليف إنها مهمة لا شك تدخل فى نطاق مسئوليتها تجاه مواطنيها ومستقبل الأمة .

ثم إنه لابد أن نغرس فى أبنائنا عادة القراءة منذ الطفولة ، وعلى هذا لابد من تقرير بعض الكتب الثقافية - وفقًا لمستويات كل مرحلة تعليمية - ضمن مناهج الدراسة ، وأن يؤدى فيها الامتحان آخر العام ، أسوة بأى مادة أخرى من المواد المقررة ، ولا يجب أن نكتفى بهذا ، بل لابد أن تحدد كل مدرسة بعض الكتب ليقرأها الطالب خلال فترة الإجازة السنوية وألا ينقل الطالب إلى صف أعلى قبل إجراء اختبار للتأكد من أنه أجاد قراءة هذه الكتب وتبقى بعد هذا المسابقات المغرية التى تشجع على القراءة وتغرى بها .. وبهذه الوسائل وغيرها - مما يكون قد فاتنى - يمكن أن يعود الكتاب إلى مكان الصدارة فى حياتنا .. وتصبح القراءة عادة راسخة لا تجور عليها وسائل أخرى .. إن الحضارة الإنسانية قد قامت على أكتاف الكلمة ولا يمكن أن تستمر إلا بها !!

أكتوبر.. روعة ما كان..
وحلم ما يجب أن يكون!

هذا اليوم الرائع الذى انطلقت فيه مصر. بجماع إرادتها ببسالة مقاتلها. بأمجاد تراثها.. بكل القيم الشريفة التى اكتسبتها، بالدم وكونتها بالمعاناة خلال مسيرتها الممتدة فى درب الحضارة.. بكل قطرة دم فى شرايينها.. بكل اختلاجة حياة فى قلبها.. لتعاهد ضمير العصر على أن تقهر الشر، وتدحر العدوان.

ولتقول للدنيا هأنذا مصر من جديد.. ابنة التاريخ وربيبة الحضارة.. ووطن الأمجاد.. هأنذا من جديد الرأس المرفوع.. والإرادة المتحفزة.. هأنذا نهر خضرة وسنابل حب وأرض عطاء.. وبجانب هذا سيف حق.. وسواعد قتال.. ودومًا وإلى الأبد مقبرة غزاة!

قالتها مصر .. هأنذا .. لكل من يحسبها - بالوهم - قد غفت .. تبهر الدنيا بوثبتها .. وتتخطى المستحيل بقفزتها .

هذا اليوم الرائع .. لا تقتصر دلالته على أنه مجرد انتصار عسكرى أحال أسطورة المقاتل الإسرائيلى إلى رذاذ يتناثر تحت أقدام أبطال العبور .. إن سقوط خط بارليف مندحرًا تحت أقدام الإرادة المصرية العابرة .. سقوطه يعنى سقوط أشياء كثيرة مغلوطة .. سقوط الانهزامية واليأس والتشكيك .. سقوط مغالطة أن الإنسان العربى ليس له غير أن يجتر مفاخر التاريخ .. أما العصر فليس هو فى مستواه .. وعليه أن يقف عند تخومه يتفرج ولا يشارك .. وعندما اجتاز جنود مصر براكين المحال بالكفاءة والعلم وإجادة فن القتال .. كان لابد أن تسقط هذه الأكاذيب .

هذا عن الحقيقة فماذا عن الحلم .. هذا ما كان .. فماذا عما يجب أن يكون !

إن أكتوبر العظيم يجب ألّا يتحول إلى مجرد نشيد نغنيه .. ومناسبة نحتفل بها .. فنشوة ما حققناه يجب ألا تنسينا معاناة ما يجب أن نحققه .. فالطريق طويل من أجل دحر الصهيونية نهائيًا .. وصحيح أنها تتذرع بأسطورة عنصرية وكلها التاريخ بأقدامه ، وداسها التقدم بمباسمه .. ولكنها تزحف بها بكل أحقاد العصور وبكل الرغبة المجنونة فى الانتقام لعارهم فى التاريخ .. ولهذا فإن الطريق وعر مرير وبالغ الصعوبة وينتظرنا كفاح مرير مرير ..

سلاحه الأفضل هو الحضارة بكل ما تعنيه الكلمة .. ثقافة وعلماً وتطوراً .

لقد كانت « حطين » هى بداية طريق طويل لرد الهجمة الصليبية على أعقابها .. وعلينا ليكون المستقبل لنا ، أن نرتفع إلى مستوى ما حدث فى أكتوبر .. أن تتحول دلالته ومعطياته إلى قيم متأصلة تحكم حياتنا .. إلى سلوك حضارى تتطبع به كل تصرفاتنا .. أن تترسخ قيم الديمقراطية فى وجودنا .

إن أكتوبر يجب أن يكون جامعة مشعة .. تفجر البحث .. وتقدم الحلول ، تنشر العلم وتقدم الثقافة . إن أكتوبر هو المصنع المنتج .. والحقل المعطاء والفن المبدع . والمدرسة المعلمة والمربية . علينا أن نعض على أكتوبر بالنواجذ قيم تضحية وشرف .. قيم كرامة ونزاهة وحرية وعبور إلى كل ما هو حضارى وجميل .. علينا أن نرسخه قيمة فى حنايا القلب وأعماق الوجدان .. أن نحمله فى حدقة العين ونتنفسه فى خفقة القلب .. علينا ألّا يفلت منا أكتوبر أبدًا .. أكتوبر هو الوطن الجميل السعيد .. هو المواطن المكفول الحق . المتكافئ الفرص . السباق إلى الواجب بطواعية من شرفه ... لا قسراً بالقانون .

لقد عبّد أكتوبر الطريق إلى المستقبل .. مهدها .. ورصفها لمسيرة تمتطى أحلام الغد . وتعانق المستقبل . وتصنع الفجر .. فلتكن مصر مشعل ثقافة . وبيئة علم .. ومنار عدالة أن يكون الامتياز

للكفاءة والموهبة . للعمل المتقن . والجهد الخلاق . والابتكار المبدع .. وطنًا يكفل الحوار دفاقاً وحرًّا .. أن تكون الحرية للمواطن شجاعة وليس تطاولا .. جسارة وليس عربدة . أن تكون الطاقات تشييدًا وليس تخريبًا . إضافة وليس تدميرًا .. أن يكون الاختلاف حواراً وليس سبابًا .. أن تكون الثورية سلوكًا وليست مزايدة .. والسياسة ثقافة وليست متاجرة ، أن تكون مصر الوطن الذى تقاس فيه قيمة الإنسان بمدى ما يبذله ، لا بحجم ما يملكه .. بمدى ما يقدمه ، وليس بقدر ما يكسبه .

هذا هو أكتوبر .. الذى نريده .. والذى ننتظره .. والذى علينا أن نكافح بلا هوادة .. وأن نعمل بلا توقف .. من أجل أن يكون !

السباعى .. يقدم كلمة الوداع

كانت مصر دومًا نبض قلبه .. ووجد روحه .. وهم عقله .. أعطاها كل طاقات الفنان فيه .. تلك الطاقات الخصبة التى تحمل خصائص ترابها ، ومكونات أصالتها ، وقسمات عبقريتها .. أعطاها ذوب روحه وعصارة حياته أدبًا روائيًا أثرى به وجدانات جيل أقبل على قراءته حيث وجد فيه نفسه .. وفى النهاية قدم لمصر دمه تتويجًا لهذا العشق الذى يكنه لها .. وسقط السباعى شهيدًا وهو يدافع عن قضايا الشعوب وكرامة الإنسان .. حاملا علم مصر .. علم العروبة .

وإذا كنا قد تعودناه دائمًا يقدم رؤية الفنان تعبيرًا عن حبه لمصر التى جعلها قضيته وقدره .. فإن هذا الكتاب «مصر المشكلة .. والحل» ، والذى تعرض فيه لمشاكل مصر بطريقة مباشرة يثير فينا

التساؤل أمام النهاية المأساوية التى حاقت به .. أتراه كان يستشعر النهاية .. أكانت تستشفها روحه فقدم فى النهاية كلمة الوداع .. ألا هل بلغت اللهم فاشهد .. لم ير يوسف السباعى هذا الكتاب فقد دفع به إلى المطبعة قبل رحيله .. ولم يصلنا نحن الذين كان يؤثرهم بالود بخطه .. كما تعود أن يهدينا كتبه .. ولكنه أهداه لمصر كلها « إلى مصر فى تحفزها للانطلاق عبر الحواجز والعقبات .. أهدى اجتهادات للحل .. كلامًا لو نفع الكلام » ..

ماذا يقول يوسف السباعى فى هذا الكتاب « مصر - المشكلة .. والحل » الذى أصدرته دار المعارف مؤخرًا .

عندما يلقى يوسف السباعى نظرة شاملة على واقعنا بأسره يستخلص من هذه النظرة الفاحصة أن جذور المشكلة تكمن أساسًا فى أننا شعب يصر على التناسل بكثرة .. وهو لا يملك الآن من حيث موارده المتاحة ما يواجه به احتياجات الكثرة التى وصل إليها ، نتيجة عدم ضبط النسل وموازنته بالموارد المتاحة . وهى - هذه الكثرة - بالأسلوب الذى ننتهجه فى إعداد القوى العاملة وتوزيعها .. تتحول فى النهاية إلى قوى غير عاملة تشكل عبئًا يحتاج إلى خدمات .. أكثر من أن تتحول إلى قوى إنتاجية تعاون فى تهيئة هذه الخدمات .. أى أن الزيادة ببساطة تحتاج إلى نقود أكثر مما تعطى من النقود . والحل عنده يتمثل فى الحد من هذا التكاثر

أولا .. ثم تأهيل التكاثر الذى وصلنا إليه ليتحول إلى قوى منتجه حقيقية .

وعندما يستعرض السباعى المشاكل التى تواجه مصر الآن فهو لا يتحول إلى متشائم قانط من الحل ، ولو كان الأمر كذلك لما كانت هناك ضرورة لهذه الاجتهادات التى يقدمها انطلاقًا من اعتقاده .. ونحن لم نضق بأرض مصر بعد . وخامة الإنسان المصرى ممتازة فهو قادر على أن يفعل - إذا درب - أى شىء .

ولكن المشكلة أننا نسير فى درب تقليدى ، لم يعد هو الصالح لمستقبلنا . وندور فى حلقة مفرغة من محاولة زيادة الأجور دون أن تعادلها زيادة فى الإنتاج .. فلا تنبت لنا بالطبيعة إلا زيادة فى الأسعار ، لأن كمية المطروح للاستهلاك لم تزد . فإذا زادت نقودنا دون زيادة فى الإنتاج إلى نقص سعر النقود ، وقد يعرف رجال الاقتصاد هذه البديهيات .. ولكن رجل الشارع يجب أن يعرفها .. يجب أن يعرف أن أساس حل المشكلة .. ليس فى أن يمنح مزيدًا من النقود التى لا تساوى ثمن الورق الذى تطبع عليه . بل فى أن ينتج شيئًا ، إما أن يأكله أو يلبسه أو يبنى به بيتًا أو ينتج شيئًا يصدره إلى الخارج ، لتحضر بدله شيئًا نأكله أو نلبسه أو نشيد به سكنًا جديدًا ، هذا حل لا بديل له .. يجزم السباعى بهذا ..

وهذا الحل يحتاج إلى حزم فى السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، فى تغيير كل أسلوب حياتنا ، هذا الحزم لابد منه حتى

لو وصل الأمر - فى وجهة نظره - إلى أن نغلق الجامعات لبضع سنين، لتتحول إلى مراكز للتدريب.. مراكز يمنح الذين يتخرجون فيها من عمال البناء والسباكة والكهرباء والنجارة والزراعة العملية، شهادة يسميها السباعى «بكالوريوس التعمير» أو «بكالوريوس الخلاص»، لأننا - كما يقول - نحتاج إلى ثورة الخلاص من كل ما أحاط ويحيط بنا من قيود الأساليب التقليدية، فى التعليم وفى العمل، إننا نحتاج إلى ثورة فى أسلوب الحياة.. ثورة انضباط نعرف فيها أنه مطلوب منا أنواع جديدة من العمل غير الجلوس على المكاتب وشرب القهوة وقراءة الصحف.. وأنه مطلوب منا أن نمارس العمل فى أى مكان.

ولا نرجو ونتوسط لكى يكون مقر عملنا فى مصر الجديدة، لأننا نقطن فى مصر الجديدة.. أو فى الزمالك لأننا نقطن فى الدقى»، باختصار يطالب السباعى بالانضباط فى كل مجالات العمل فى مصر، وهذا ليس من العسير تحقيقه، ويضرب لنا المثل بمعركة العبور.. حيث استطاع المقاتل المصرى بالعزم والإيمان والانضباط أن يحقق معجزة العبور.. لذلك فإن شعبنا يستطيع بنفس الإيمان والعزم والانضباط أن يحقق معجزة عبور العجز والفقر واللف فى حلقة مفرغة من التكاثر وعدم الإنتاج، إلى شاطئ الرخاء والأمان.

لقد صنع المقاتلون ما صنعوه بقدرة الإنسان المصرى

وانضباطه .. وقدرة الإنسان المصرى موجودة وما ينقصها فى مجال العمل اليومى هو الانضباط والخلاص من قيود الأساليب التقليدية البالية، ومن سلبيات التخلف الموروثة.

قبل أن يمضى السباعى فى تقديم حلوله لمصر على ضوء المشاكل التى تعانيها نجده يلقى نظرة على العالم حولنا .. ليجد أن أرض كوكبنا مازالت تكفى أضعاف ما عليها .. إذن فالميزان لم يختل بعد على المستوى العالمى، وإمكانات الطعام المستخلصة من الأرض بصحراواتها وغاباتها وبحورها مازالت تملك أن تقدم ما يكفى وما يسد احتياجات أضعاف أضعاف ما عليها من البشر وبإمكانات العلم القادرة على إزالة ملوحة البحار، وعلى استغلال كل بقاع الأرض التى لم تخرج بطونها كل ما تنطوى عليه من إنتاج غذائى وخامات صناعية وطاقات إنتاج، وبكل هذا تصبح النظرة غير قابلة لأن يشوبها التشاؤم.

إذن من أين جاء الخلل فى ميزان البشر والأرض .. هذا الخلل الملموس الآن على المستوى العالمى .. حيث بعض الشعوب تفعمها الرفاهية، وبعضها يفترسه الجوع .. يقول لنا يوسف السباعى .. إن قيمة الإنسان بعد مرحلة التحرر البشرى قد وضحت. وأصبح لكل إنسان حقه فى أدنى الاحتياجات البشرية - خصوصًا فى العالم الثالث - الذى لم يعد أكوامًا من العبيد، يمكن أن تقذف بهم أيدى الأسياد فى البحر عند العبور من أفريقيا إلى أمريكا، لكى تخف

حمولة السفينة ليمكنها الفرار بما تبقى عليها من العبيد المخطوفين .. لقد ازداد عدد البشر الذين لهم قيمة ولهم حق الاستهلاك والاستفادة بما تنبته أيديهم ، استجلابًا من الأرض أو إنتاجا من المصانع .. بعد أن تحررت الشعوب واندحر عصر الاستعباد .

يذكرنا السباعى بأن محاصيل الأرض كانت تلقى فى البحر خلال الثلاثينات حتى لا يتهاوى سعرها لأن حجم أصحاب الحق فى الاستهلاك وقتها كان محدودا بسكان ما يسمونه العالم المتحضر .. عالم الغرب بالطبع .. أما بقية العالم فلم يكن يحسب حسابهم ، ولكن عندما تغير الوضع .. زاد عدد أصحاب الحق فى الاستهلاك ووضحت احتياجاتهم بعد أن أصبحوا هم أنفسهم أصحاب الأرض .. بجانب الزيادة فى معدلات السكان .. وهذه الزيادة فى القوى البشرية المستهلكة لم يصاحبها بنفس المستوى زيادة فى استغلال كرتنا الأرضية .. لقد اتجهت طاقة الجزء القادر من العالم من حيث الإمكانات المادية والعلمية .. اتجهت هذه الطاقة إلى التدمير بدل التعمير .. نعم تزايدت الأعداد ذات الحق فى الحياة ، ولكن قدرات العالم وإمكاناته وخيراته تستنفد فى التدمير .. ثم إن الافتراض بأن الأرض قد استنفدت مواردها وعلينا الانطلاق إلى الكواكب الأخرى كبديل لهذه الأرض المستنفدة .. هذا الافتراض قد أوقف الإنسان عن أرضه جائعًا عاجزًا .. وإذا كانت هناك دعوة قد انطلقت لتتوسل إلى العلم كى يصنع لنا من غير حبة القمح رغيفًا ،

ومن غير الحيوان لحمًا - وربما يكون العلم غير عاجز عن ذلك - ولكن هل يكفى أن نظل فى انتظار هذا الطعام العلمى .. حتى الموت .. وأمامنا الأرض الشاسعة التى لم تزرع ، والتى يمكنها أن تفى باحتياجات إطعامنا جميعًا بما لدينا من وسائل العلم الحالية .

ويعرف السباعى أن هذا لا يمكن تحقيقه إلا إذا نزع السلاح واستتب السلام .. وتوجهت كل الطاقة البشرية من أجل استخراج طعام يسد حاجة الجياع فى العالم بأسره ، لتسود العدالة الاجتماعية بين أفراد كل شعب ، وبين الشعوب فى العالم قاطبة .. هذا عن الأرض على مستوى العالم .. فماذا عن مصر ؟

هل اختل التوازن فى مصر بين الأرض والبشر .. يقرر السباعى أن الميزان قد اختل فعلا ، ومن أجل هذا لابد أن نحسم أمرنا ونبدأ بوقف هذا التكاثر .. الذى جعل الميزان يختل بما يشكل خطورة على مستقبل مصر إن لم نبدأ العلاج الجدى .. كيف .. ؟ نتابع مع السباعى .. وهو يطرح تساؤله عن الأسباب التى أدت إلى فشل محاولة تنظيم النسل عندنا .. إن سبب الفشل فى اعتقاده ، هو أن الناس الذين يتكاثرون ليس لديهم سبب لمنع هذا التكاثر ، فمن غير المنطقى أن تحاول إقناع إنسان بالامتناع عن فعل لا يسبب له ضررًا شخصيًا مباشرًا .. ولقد أقدم جزء من مجتمعنا على الحد من نسله عندما شعر بأن دخله لا يكفى غير عدد محدود من الإنجاب ، ما هو الحل ؟

إن التخطيط فى المجتمع الاشتراكى يجب أن يكون شاملا.

فالذى يخطط لاحتياجات مجموعة من البشر، يجب أن يحدد عدد هذه المجموعة وتصبح مسئوليته منذ البداية محددة بهذا العدد.. وعندما يعلن المجتمع الاشتراكى أنه مسئول عن توفير الغذاء والكساء والخدمات الصحية والسكن للمواطن، وأن يهيئ له التعليم، وأنه يؤمنه على يومه وغده وأولاده من بعده.. عندما يخطط المجتمع الاشتراكى لتوفير كل ذلك.. لا يمكن أن يكون لعدد غير محدود، ولا يمكن أن تطلق حرية الفرد فيه لأن يقذف إلى المجتمع بأى عدد من الأولاد الذين يسأل الدولة عن تأمينهم وتوفير كل احتياجاتهم.

إذن فالسباعى يقترح أن تحدد الدولة فى تخطيطها، أنها لا تستطيع أن توفر بإمكاناتها الموجودة إمكانية التأمين لأكثر من عدد محدد، يكون نصيب إنجاب الفرد فيه لا يزيد على ثلاثة أولاد أو أربعة على أكثر تقدير.. وإذا كانت الدولة لا تملك أن تحدد نسل المواطن، فليس أقل من أن تحدد العدد الذى نستطيع أن نهيئ له هذا القدر من الخدمات، فإذا كانت الدولة مسئولة عن توفير التعليم المجانى لكل فرد.. فهى لا يمكن أن تكون مسئولة عن تعليم عشرة أبناء لكل فرد.. ويصبح التزام الدولة أمام الفرد أن تهيئ له احتياجات أربعة أبناء على أقصى حد.. وهنا يصبح واضحًا أمام أى مواطن أن مجتمعه الاشتراكى لا تسمح موارده بغير تهيئة الضمان

لأكثر من هذا العدد، ويتحتم عليه بعد ذلك أن يتحمل هو مسئولية كل ما يدفع به إلى المجتمع أكثر من هذا العدد .. وبهذا يصبح النسل الزائد عبئًا حقيقيًا على صاحبه .. عليه إما أن يوقفه .. أو أن يوجهه إلى ناحية أخرى من نواحى العمل المنتج الذى يسهم فى زيادة الإنتاج ولا يثقل كاهل الدولة .. بهذه الوسيلة يمكن أن يفكر المواطن فى أسلوب تكاثره .. إن اتخاذ هذا القرار من جانب الدولة سيضع كل مواطن أمام مسئوليته وجهًا لوجه .

وبناء على هذا العدد المحدود من النسل يجب أن نخطط لحل الوجه الآخر من المشكلة . وهو زيادة الإنتاج الذى يمكن من زيادة الدخل وبالتالى يرتفع مستوى المعيشة للمواطن .. وإذا كان هناك من يرى أن ثروتنا القومية هى البشر ، فإن السباعى يوافق على هذا ، ولكنه يرى أننا فى هذه المرحلة أحوج ما نكون إلى توعية البشر ، وليس مجرد كميته . وأن الضرورة تقتضى تنمية هذه الكمية من حيث الكيف لا الكم وحده .

والخلاصة أن الإنتاج فى مصر هو حصيلة أرض وبشر .. ولا يمكن فى عملية الإنتاج فصل البشر عن الأرض .. ولهذا لابد من خريطة جديدة لمصر بتعمير أرض جديدة من سيناء والشاطئ الشمالى ، وشاطئ البحر الأحمر ، والوادى الجديد ، وحول بحيرة ناصر ، ومنخفض القطارة .. والذى يمكن أن يغير معالم مصر كلها .

ولكن البداية فى حل مشكلة الإنتاج هى إعداد الإنسان المصرى

بحيث لا تراق قطرة من القوى البشرية دون الاستفادة منها .. مع توفير الرعاية التى تضمن قدرتها على العطاء بأقصى حد ممكن ..

ويمضى السباعى فى هذا الكتاب .. مستعرضًا مشاكل مصر .. مقدمًا لها اجتهاداته للحل .. فهو يحدثنا عن الأمية وكيف يمكن القضاء عليها من المنبع والمجرى، ويواجهنا بمشاكل الريف والقاهرة والإسكان والتعليم والمواصلات والعمالة، ولا يكتفى بعرض المشاكل ليبين لنا خطورتها على مستقبلنا، بل يقدم الحلول التى استخلصها باجتهاداته .. وإذا كنت أنا هنا قد تحدثت عن الكتاب من خلال العموميات، فإن الحقيقة أن السباعى قد تحدث من خلال التفاصيل .. تفاصيل هذه المشاكل وتداعياتها وظواهرها .. وتفاصيل الحلول التى يعرضها للخلاص من هذه المشاكل ومواجهتها من جذورها ومن فروعها.

ومن أهم ما قدمه هذا الكتاب .. دعوته للتعمير العسكرى لصحراء الصالحية .. عن طريق إقامة المستعمرات التى تحقق امتدادًا عمرانيًا وإنتاجيًا، وفى نفس الوقت تشكل أمنًا وجزءًا من الاستراتيجية العسكرية .. حيث تتحول هذه الصحراء التى هى بوضعها الراهن بمثابة فراغ يكشف الدلتا أمام أية قوات غازية تتمكن من كسر خطوط الدفاع العسكرية - إلى مناطق مليئة بجيوب المقاومة التى إن لم تستطع عرقلة قوات الغزاة فإنها على الأقل تصبح بمثابة تهديد خطير لها، وبهذا لا تتكرر أبدًا مأساة عام

١٩٦٧ ، عندما أصبحنا ذات يوم وليس هناك أى حائل بين العدو وبين القاهرة .. وليس هناك سوى الفراغ .. إن التعمير العسكرى لصحراء الصالحية يمكن أن يشكل - كما يقول السباعى - ما يسمى بمانع الصدمة بين القناة والدلتا ، وفارق كبير بين أرض فراغ تصبح بمجرد انسحاب القوات العسكرية مراحًا للقوات الغازية . وأرض ملغمة بالوحدات الدفاعية التى تدافع عن أراضيها ومحاصيلها ودورها وبقائها ، وتشكل جيوبًا للمقاومة المتفجرة ، ومن الواضح أنه ينادى بنوع من التعمير العسكرى القائم على نمط معين من الوحدات الاجتماعية والعسكرية ، والتى أنشأتها إسرائيل فى صحاريها ، حيث أصبحت تشبه الألغام فى طريق القوات المهاجمة والتى ترغمها على التوقف عندها .. وتتمكن من تعطيل هجومها وتصبح جيوبًا خطرة تهدد مؤخرتها وخطوط مواصلاتها وإمداداتها .

ويتقدم السباعى بهذا المشروع الثورى محددًا إياه فى النقاط التالية :

١ - البدء بالاستعداد لتنفيذ مشروعات تعمير الصحارى ، واستصلاح الأراضى فى منطقة صحراء الصالحية التى تقع فى المثلث بين القناة وترعة الإسماعيلية ومحافظة الشرقية بطريقة المستعمرات العسكرية .

٢ - البدء فى إنشاء كلية الزراعة العسكرية .

٣ - إلحاق - بالتطوع أو بالتجنيد - جميع العمالة الزائدة

ودفعات الخريجين الذين لا تحتاج إليهم الدولة (بكورس) قصير لإعدادهم للعمل فى الزراعة مع التدريب العسكرى اللازم للدفاع عن كيانهم وأراضيهم.

٤ - إعطاء الأسبقية لاستصلاح الأراضى فى هذه المنطقة لشق الترع والمصارف وتمهيد الأرض.

٥ - الإسكان المدنى فى الخيام حتى تعد مبانى المستعمرات بكل ما تحويه من دشم للأسلحة وملاجئ للأفراد وتوضع فى أماكنها الملائمة للدفاع.

ويطرح السباعى مشروعه للبحث والمناقشة من أجل تحقيق المسائل الحيوية التالية:

١ - ملء الفراغ بين القناة والدلتا بالمواقع الدفاعية وبالمواطنين أصحاب الأرض الذين يدافعون عن أرضهم حتى الموت.

٢ - التنفيذ العملى لكل ما تقوله من ربط الإعداد للمعركة - إذا فشل الحل السلمى - بتنمية قواتنا الذاتية من أجل بناء المستقبل الحقيقى.

٣ - إعطاء الفرصة للشباب للمشاركة الثورية العملية فى خوض معركة التحرير والبناء، بدلا من التجمد على المكاتب أو الاعتصام فى المدرجات.

يقول السباعى «هذا هو مشروع يمكن أن نختبر فيه إرادتنا

وتصميمنا وقدرتنا على أن نجعل من أقوالنا الحارة المتدفقة أفعالا ليست مستعصية، فقد شاهد هو ذاته تطبيقًا لها فى الصومال، حيث تكونت وحدات زراعية من الجيش والمدنيين، لاستصلاح آلاف الأفدنة المعطلة عن الزراعة، وشاهد مناطق تتكون كل منطقة من ثلاثة آلاف فدان يرأسها رائد أو مقدم وقد زرعت قطنًا وذرة، بعد أن كانت بورًا.

* وأخيرًا فإن هذا الكتاب بجانب قيمة ما قدمه من حلول.. فإنه دعوة مفتوحة للحوار حول واقع مصر والمستقبل الأفضل الذى لابد أن يُتاح لها.. وعلينا أن نجعل اجتهاداته منطلقًا للعمل الجدى من أجل مصر.. وربما يكون هذا هو التكريم الحقيقى الذى تنتظره منا روح الشهيد يوسف السباعى.. تلك الروح التى فاضت من أجل مصر وإنسانها.. ومن أجل وطن عربى مصون الكرامة مرفوع الهامة.

طه حسين.. سوزان مع أيامه !!

عرفت مكتبتنا العربية أدب الترجمة الذاتية على نطاق ضيق ومحدود منذ العصر العباسى حتى العصر الحديث.. حيث تطالعنا عديد الأسماء من أدباء وفلاسفة ومتصوفة ترجموا لأنفسهم مثل: حنين بن إسحاق، والرازى، وابن الهيثم، وابن سينا، والجاحظ، والحلاج، وابن حزم، وابن الجوزى، والسيوطى، وذو النون المصرى، وأسامة بن منقذ، والغزالى، وابن عربى، وابن الفارض، والشعرانى وغيرهم.. ولكنها فى الغالب ترجمات لم تستهدف هذا النوع من الفن فى حد ذاته.. وأغلبها إشارات جاءت عرضًا فيما كتبوه.. وليس هناك من أفرد كتبًا متخصصة غير الحلاج فى كتابه «الطواسين» والغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال» وابن خلدون

فى كتابه «التعريف بابن خلدون».

وعندما نصل إلى العصر الحديث لا نجد غير ما كتبه على مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية» من صفحات عن حياته، استخلصها بعد ذلك الدكتور محمد درى الحكيم ونشرها مستقلة. وغير ما كتبه عن نفسه الأديب السورى محمد على كرد فى كتابه «خطط الشام». ثم كتاب «الأيام» لطه حسين، وكتاب «حياتى» لأحمد أمين بجانب إشارات متناثرة كتبها عن حياتهم بعض أدباء العالم العربى.. ولكن ليس هناك من كتاب ارتفع إلى مصاف الفن المتميز غير كتاب الأيام لطه حسين.

وإذا كانت المكتبة الغربية فى شتى الأقطار الأوربية قد أثريت بعشرات الكتب الهامة عن كبار الأدباء، بأقلام الأهل والزوجات والأبناء والأصدقاء والتلاميذ الذين التقت حياتهم بحيوات هؤلاء المشاهير.. وقد أتاحت هذه الكتب شمولا فى النظرة واتساعًا فى الرؤية إلى هؤلاء المشاهير من خلال ما قدمته من جوانب عن حياتهم الخاصة.. ولكن مكتبتنا العربية فقيرة إلى هذا النوع من الأدب.. فغالبًا ما تتحدد معرفتنا بأدبائنا ورجال الفكر والعلم والسياسة لدينا، بمجرد الخطوط العريضة التى يقدمها لنا التأريخ فى عمومياته.. أما حياتهم من الداخل.. مشاعرهم تجاه المواقف والأحداث والأشخاص فهذا ما لم يتح لنا بطريقة مكتملة الأبعاد والزوايا، وعندما نلقى نظرة على مكتبتنا العربية فلا نكاد نظفر

إلا بأشياء قليلة مثل ما كتبه عن أمير الشعراء أحمد شوقى ابنه على شوقى .. وما كتبته عفاف عزيز أباظة عن والدها الشاعر عزيز أباظة .. وما كتبه ميخائيل نعيمه عن صديقه جبران خليل جبران .. وما كتبه طاهر الطناحى عن الأديبة اللبنانية مى زيادة .. وبالقطع لا يوجد فى أدبنا العربى فى مختلف عصوره زوجة واحدة كتبت عن زوجها الأديب .. ما عدا سيدة واحدة أقدمت مؤخرا على هذه المهمة هى السيدة سوزان طه حسين، قرينة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى كتاب أصدرته دار المعارف فى مصر بعنوان « معك » .. وإذا كان طه حسين هو صاحب أول ترجمة ذاتية فى أدبنا الحديث بكتاب « الأيام » فهذا الكتاب « معك » هو الأول من نوعه أيضًا فى مكتبتنا .. وهو بجانب هذا إضافة لكتاب الأيام من زاوية جديدة .

وكانت مصادفة طيبة أن يصدر هذا الكتاب فى الذكرى السادسة لرحيل العميد عن دنيانا .. ولم يكن طه حسين بكل ما أعطاه وبكل ما قدمه وبكل ما فجره فى حياتنا الثقافية من معارك ومواقف وأفكار .. سواء فى رحاب الجامعة أو على مستوى الصحافة أو المحافل الأدبية .. لم يكن بكل هذا مجرد أديب من أدباء عصره .. أو مجرد جزء من نسيج حياتنا الثقافية .. ولكنه كان محورًا أساسيًا من محاور ثقافتنا المعاصرة .. صنع اتجاهًا وكان عميد مدرسته وترك بصماته وحفر مفاهيمه .. وستبقى امتداداته ماثلة لأجيال بعدنا ..

ومن هذا المنطلق فإن كل جديد يكتب عنه يستحق الاحترام والاهتمام سواء جاء من زاوية الانتصار له أو الاختلاف معه.. سواء كان له أو عليه.. فما بالك وهذا الجديد يأتينا من قبل السيدة التى تلاقت خطواتها بدربه، واختلطت أنفاس وجودها بأنفاس حياته.. وقاسمته سنوات المجد.. وقبلها معاناة المحن، لمدة اقتربت من ستة عقود من الزمان، اكتظت بالأمجاد وبالأحقاد، بالانتصارات وبالهزائم.. وإذا كانت الخطوط الرئيسية عن طه حسين.. كفاحه ومواقفه وابداعاته ومعاركه متاحة لنا من خلال ما كتبه هو وما كتب عنه.. فأجدنى هنا فى هذا الكتاب الرائد الرائع مهتمًا بالوقوف عند لمسات إنسانية صغيرة.. ولكنها تقدم دلالات باهرة فى تأكيد قيم معينة.

« لسنا معتادين على أن يتألم الواحد منا بمعزل عن الآخر » عبارة كتبها طه إلى سوزان فى إحدى فترات غيابها عنه.. وهى تلخص كما تعبر أروع تعبير عن كنه العلاقة التى ربطت بين هذا الرجل الفذ، وهذه المرأة التى تنتمى إلى طراز فريد من النساء، يبنى الرجال ويلهم العظمة، ويذكى الطموح ويكسب ما يجعل حياة العظماء، ماضية فى طريق المجد برغم الصعاب والعواصف.. تقول سوزان عن هذا الكتاب « أردت هذه الرحلة لأمشى معك.. ولأعيش معك.. أعيش معك مرة أخرى » وجعلتنا بما عرفت كيف تلتقطه من جزئيات صغيرة مكثفة شكلت فى مجموعتها بانوراما

مكتملة .. نعيش نحن أيضًا معهما هذه الحياة لحظة بلحظة .. هذه الحياة التى كانت أكبر من مجرد الحب بين رجل وامرأة .. ولقد عبر طه حسين عن نوعية هذه العلاقة بقوله فى إحدى رسائله إليها : « إن ما بيننا يفوق الحب » !

نعم إن الأواصر التى وحدت بينهما أقوى من الحب بمعناه المحدود بين رجل وامرأة .. ولكن الحب كان هناك أصلا .. والغريب أن البداية بينهما كان يمكن أن تأخذ مسارًا مختلفاً .. بل لعلها كانت من الممكن أن تصنع حاجزًا دون الالتقاء .. فعندما أفضى لها طه حسين بحبه أول مرة وكانت وقتها تعاونه فى حياته الدراسية .. وجدت نفسها تصرخ فيه محتجة و « ولكن لا أحبك » كانت تعنى الحب بين الرجل والمرأة .. وكانت صرخة فظة .. متسرعة وجهمة .. وليدة المباغتة المنقضة من جانبه .. ولكن هذا لا يعفيها من كونها ظالمة .. ولكن هل كانت وليدة الحقيقة .. هل كانت ابنة الصدق ؟؟ بعد ذلك عندما آبت إلى نفسها .. عندما تلاشت انفعالات مباغتة اللحظة .. وعدم التوقع .. بعدها تمكنت من أن تكتشف الكامن تحت فى أغوار قلبها .. والذى كان متواريًا خلف ركام العشرة والألفة والتفاهم الفكرى ولقاءات العمل .. والذى لم يتح له الاستغراق فى مهام الدراسة أن يجسد صورته أو يسمع صوته .. إنه الحب ..

عندما اكتشفته سوزان داخلها انبرت تواجه أهلها بالقرار « سأتزوج من هذا الشاب » وهبت عواصف الاعتراض .. كيف ..

أعمى وأجنبى .. ومسلم فوق هذا .. لاشك أنك جننت تمامًا .. ولكنها كانت قد اختارت فصمدت نفس صموده الباهر عندما كان يتحدى ما يشبه المستحيل .. والغريب أن كل أسرتها عارضت ما عدا عم لها كان من رجال الدين !! فبعد أن التقى بطه حسين ، عاد مبهورًا به يبارك الزواج ويقول لها : «هذا الرجل سوف يتجاوزك باستمرار» !!

ومن يومها وهى بجانبه حتى لحظة الموت .. عندما قال لها قبل النهاية بساعات «أية حماقة هل يمكن أن نجعل من الأعمى قائد سفينة» تقول سوزان «من المؤكد أنه كان يستعيد فى تلك اللحظة العقبات التى كان يواجهها ، والرفض الذى جووب به والهزء ، بل الشتائم من أولئك الذين كانوا بحاجة لمرور زمن طويل حتى يتمكنوا من الإدراك» .. ولكن يقينًا وجد طه الكثير من الإدراك والإدراك العميق من لدن الشعب العربى فى شتى أقطاره ، ومن لدن العالم المتحضر .. ووقف الرأى العام العربى وقادة الفكر فى أوروبا بجانبه ، فى المحن التى تعرضت لها حياته من جراء مواقفه الفكرية الشجاعة .. فعندما طرده صدقى باشا من الجامعة ، وقف الرأى العام المصرى معه .. ومنحه العالم العربى لقب عميد الأدب العربى عوضًا عن عمادة كلية الآداب بالجامعة ، وخارج الحدود تعاطف معه رجال الفكر فى أوروبا وكتب إليه ضمن الذين كتبوا واحتجوا المستشرق الإيطالى ليفى ديلافيد يقول : أحزنتنى هذه الأخبار بصورة عميقة ..

إن تاريخ النضال من أجل الحرية العلمية لم يستكمل مسيرته بعد .. لكن ذلك سيتحقق يومًا ما .. وإنى لعلى اقتناع بذلك .. سيتحقق ذلك بانتصار روح الحرية والحقيقة .. إن المأساة التى أصابتكم ستكون عارضة وإنى لعلى يقين من ذلك .. لأن قضية كقضيتكم .. بل أقول كقضيتنا من القضايا التى لم تكن خاسرة فى يوم من الأيام .

وما أروع هذه اللمسة التى تسوقها لنا سوزان تأكيدًا لجوانب العظمة فى شخصية العميد لقد كان خلال فترة طرده من الجامعة يعانى ضائقة مادية حادة ، وكتب إليه المستشرق ماسينيون وقتها يعرض عليه أن يعمل فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ، ويرفض طه ويكتب لسوزان : « لقد أيقظتنى رسالة ماسينيون .. إننى أستاذ معزول وعالم ممنوع من العمل ومن واجبى ألا أشتغل فى السياسة وإنما أؤلف الكتب وأسعى وراء الرزق .. أما فى أمريكا فإننى سأكون أجنبيا وسأنظر إلى حياة البلد دون أن أشارك فيها ، ولن يكون على إلّا أن أقوم بواجب محدود » .. وتعلق سوزان بقولها : نعم أيها المناضل فأنت لم تكتف أبدًا بمجرد واجب محدود !!

ألم يقل هو فى إحدى المؤتمرات الثقافية فى إيطاليا : الكتابة هى أيضًا العمل .. كل كاتب وكل فنان لا يستطيع التقدم إلا بالإخلاص .. شأنه شأن بطل دانتى يحمل المصباح معلقاً إلى ظهره ليضيىء طريق الذين يتبعونه » .. كانت هذه العبارة هى طه حسين نفسه !! ولقد علمنا هو هذا .. ألم يكن هذا الذى علمه لنا

وسكبه فينا هو الذى دفع ولده مؤنس لأن يكتب له خلال إحدى المحن التى تعرضت لها حياته : «هناك رجال خلقوا من أجل قيم مطلقة وآخرون من أجل قيم عابرة .. وليس للأوائل الحق فى أن ينسوا رسالتهم» أكان مؤنس يجروء أن يقولها لأب مثل طه .. لو لم يكن هذا الأب هو الرمز لما يقوله الابن .. لقد قاد سفينة حرية الفكر وسط الأنواء .. وما أروع هذه اللمسة فعندما جاء التليفزيون إلى بيته عام ١٩٦١ وظل العميد يتحدث عن قضايا الثقافة والفكر والأدب لمدة ساعتين وخلال فترة راحة التسجيل توسلت إليه سوزان أن يتوقف رحمة بصحته وكان مريضًا وقتها .. ولكنه ابتسم لها فى جذل وهو يقول لها : «دعينى فإن عمرى ثلاثون عامًا»، وكتب على أمين الذى كان يتابع المقابلة فوق الشاشة الصغيرة يقول ردًا على الذين استغربوا هذه الحيوية الفائقة التى بدت من خلال حديثه : ذلك أنه لم يكن يتحدث فحسب .. وإنما كان يتابع النضال»

وأتوقف عند لمسة أخرى تعبر عن احترام كل منهما لدين الآخر .. هاهى سوزان تناجيه بعد رحيله : أفكر فى هذا التوافق الخفى الذى وحدّنا دومًا فى احترام كل منا لدين الآخر .. لقد دهش البعض من ذلك فى حين فهم البعض الآخر ، إذ يرى أننى أردد صلاتى على حين يستمع إلى القرآن فى الغرفة المجاورة «كان طه كثيرًا ما يحدثها عن القرآن الكريم وكثيرًا ما كانت سوزان تصغى إليه متلوًا من الذياع ، بل إنها تؤكد فى تعبير صوفى رائع : «بل أنى

لأسمعه على كل حال فى أعماق نفسى»

ولمسة أخرى أتوقف عندها .. عندما شاركت فرنسا بلد سوزان فى الاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .. لقد أعاد طه أيامها وسام جوقة الشريف إلى فرنسا محتجًا .. أما سوزان فقد كتبت : «كنت ممزقة .. أن يحب المرء بلده وأن يتوجب عليه أن يقول إن فرنسا لا تملك الحق فى تصرفها .. كان أمرًا مؤلمًا وصعب القبول .. ثم تردف : إن من الحق أن نقول إن بلدًا لا يتجسد كله فيمن يمثلونه .. بل ربما لا يتجسد فيهم على الإطلاق .. لكن ذلك لا يحول بين الأخطاء المدمرة والشريرة وبين أن تسبب الدماء» ، ولكن أروع ما فى الموقف أن تحدثنا سوزان بإشادة عن أريحية هذا الشعب النبيل المتحضر .. فقد عاملها أيامها برغم اعتداء فرنسا باحترام بالغ ، ولم تصدر لها من أى مواطن مصرى أو عربى أية إشارة تسبب لها إحراجًا ..!! وهناك بعض اللمسات التى جاءت فى هذا الكتاب تعبيرًا عن أصالة الشعب المسلم وسماحة الإسلام وعظمته ، وتعلق سوزان على هذه اللمسات بقولها : «وعندما يتحدثون عن التعصب الإسلامى لا أملك نفسى عن الإبتسام أو الغضب» !!

ولمسة أخرى تعطيها لنا سوزان فى هذا الكتاب الرائع «معك» كان أحد العمال الفرنسيين قد قرأ موضوعًا عن طه فى إحدى صحف فرنسا .. فدفعه تقديره وإعجابه بهذا المفكر الأعمى الذى يقود فكر أمته لأن يكتب له عارضًا إحدى عينيه .. وشكره طه

معتذرًا .. ولكن العامل الفرنسى عاد يكتب ملحًا فى عرضه .. لم يكن هذا أول عرض تلقاه طه .. ولكن الذين كانوا يعرضون ذلك هم من العرب والمصريين أساسًا .. أما أن يأتى هذا العرض من عامل فرنسى غريب فى السادسة والثلاثين من عمره .. فهذا ما جعل طه يفعمه الإحساس بأن الحياة جميلة : برغم كل شىء .. وإنها تستحق أن تعانق ..

وما أروع ما قدمته سوزان فى هذا الكتاب من لمسات موحية مكثفة .. ولا أجد لدى ما أختتم به هذا العرض أهم من تلك اللمسة الرائعة التى قدمتها سوزان وهى على مشارف الانتهاء من الكتاب .. تلك اللمسة التى تقارن فيها بينه وبين أبى العلاء المعرى .. فكثيرًا ما تردد أن طه كان أبا علاء آخر .. إنسانان غارقان فى الليل نفسه .. إنسانان يرفضان قدرًا ظالماً ويملكان حرية فكر ، وكبرياء شامخة .. وكلاهما كان يحاكم العالم .. ولكن طه لم يكن متشائمًا مثل صاحبه ، ولم يحتقر الناس ولا الحياة .. وإذا كان المعرى قد رفض سجن العاهة ورفض المظالم والآثام إلا أنه لم يقل هيا إلى الحياة .. إلى النضال .. أما طه حسين فقد قالها واندفع يقاتل من أجل أن تكون الحياة كما ينبغى أن تكون الحياة !!

بالحب تستمر الحياة

لى صديق مفرط الحساسية .. بالغ الرقة .. وهذه الرهافة التى فطر عليها تسبب له التعاسة والأحزان والاكتئاب ، والإحساس بالغربة فى هذا العالم ، حتى ليتوهم نفسه كائنًا غريبًا .. أو مجرد نبات شيطانى .. وأنه جاء إلى هذا العصر متأخرًا أو مستعجلا .. فمكانه فى عصر انقضى واندحر .. أو فى عالم لم يوجد بعد .. مأساة صاحبى هذا أنه يريد أن يكون كل الناس على شاكلته .. فما دام هو صاحب قلب يفرز النبل والنشهامة والكرم والبذل .. فلابد أن يكون كل الناس هكذا .. وإذا اصطدم بما يناقض ذلك ، يدهمه العذاب ، ويمضه الحزن ويكربه الإحساس بالفقد والإحباط .. إذا حدثت جريمة ، اغتم قلبه وتكدرت حياته وامتلأ بالعلقم فمه .. وكل ذرة فى كيانه ..

كيف يمكن أن يقدم إنسان على سفك دم إنسان لمجرد الانتقام أو الحقد أو السرقة ؟ كل ما يحدث فى العالم من شر يعذبه ويبكيه .. وكلما جاءنى يحدثنى عن تعاسته ، قلت له هذه رومانسية منحرفة يمكن أن تكون مرضا .. والمقولة التى تؤكدها عبارة « كل مازاد عن حده انقلب إلى ضده » ، هى أصدق تعبير عن حقيقة الحياة والطبيعة البشرية .. المفروض طبعًا أن يكون الإنسان نبيلا .. ولكن عليه فى نفس الوقت أن يدرك أن هذه قيمة قد حباه الله بها ، لا لتكون مصدر تعاسة له ، وإنما عليه أن يحيلها إلى نعمة يسعد بها من خلال إدراكه لطبيعة النفس البشرية .. وإدراكه للظروف التى تجعل بعض النفوس شائهة وشريرة .. وهذا الإدراك هو الذى يمكنه من الإحساس بنعمة الله ويدفعه للتعامل مع الآخرين من خلال فهمه لظروفهم وظروف الحياة .. بجانب أن تتحول خصاله النبيلة إلى طاقات عمل تكافح من أجل تأكيد القيم الفاضلة ، وامتداد مساحتها وتقليص النوازع الهابطة ودحر دوافعها .

جاءنى صاحبى مؤخرًا .. يقول لى ومن نظراته تتدفق الكآبة .. لماذا يموت الحب فى دنيانا وتنمو الكراهية ، بدرجة تجعلنى أفقد أى مبرر أستند إليه فى إحساس بأننى مازلت فى دنياكم أعيش .. لقد صدقت الكاتب الأرمينى وليم سارويان عندما قرأت روايته الخالدة « الكوميديا الإنسانية » ووجدته يقول لى : إن الحب لا يموت ولا تموت معه كل الأشياء الجميلة التى يغمرها بفيضه » .. صدقته

برغبة جارفة فى أن تكون كلماته نابعة من الحقيقة .. فبرغم الشر الذى كنت أراه حولى .. كنت أعتقد أن الخير هو الأساس وهو الجوهر .. ولكن .. كل يوم تنكشف لى التجربة ويطالعنى وجه الحياة بما يناقض هذا ويتحداه .. ها هى الدنيا حولى مذابح ومجازر .. وغدر وخسة ومؤامرات .. إن إيمانى بالخير بدأ يتهاوى .. كل ما حولى يقول لى بأن الشر هو القاعدة وأن الخير هو الاستثناء .. لم أعد أؤمن بالإنسان ، بل لقد جرفنى الإحساس أنه شرير بطبعه وأن الرحمة خور فى الطبيعة كما قال ذلك أحد قدامى أدباء العرب .. ولكنى فى نفس الوقت عاجز عن تغيير جلدى والخروج من إهابى .. لا أستطيع أن أتعامل مع الناس بالطرق التى يتعاملون بها .. ومن هنا جاء عذابى !

قلت : يا صاحبى ليست خدعة ، إن الحب لا يموت .. إن استمرار الوجود وبقاء الحياة ، هو الدليل على أن الحب حقا هو القاعدة ، وأن الشر فعلا هو الاستثناء .. فلا يمكن أن تكون الحياة قد قطعت كل هذه المسيرة ، وأن الإنسان قد أنجز كل هذا التقدم إن لم يكن الحب هو قانون الوجود ، وشريعة الحياة ، وطبيعة الإنسان .. إن الحب وحده هو وراء كل شىء عظيم تحقق .. هذا المفكر الذى يتعذب فى معاناته وفى اعتصار وجوده ، ليتحول إلى قطرات زيت تضىء طريق الإنسان إلى الحق وإلى الفضيلة وإلى الطرق التى تهديه سواء السبيل .. ما الذى يدفعه لذلك غير أنه

يحب الحياة، مهما تمرد على الأشياء المشوهة فيها.. وأنه يحب الإنسان، مهما أنكر جوانب الشرّ فيه.. وهذا العالم الذى يفنى عمره فى مختبره بين قواريره وأشيائه، من أجل أن يقدم للإنسانية دواءً لوباء، أو علاجًا لميكروب.. وبعض هؤلاء العلماء قد أفنوا حياتهم قربانًا للوصول إلى هذا، فما الذى كان يرغمهم على هذا غير حب نبيل للإنسانية.. وتوق جارف لأن يقدموا لها ما يجعل حياتها ميسورة؟

ليس خدعة أن الحب لا يموت.. وأن كل إنسان توجد بداخله جوانب طيبة ومضيئة.. كما توجد بداخله مناطق مظلمة وأنانية.. ولكن.. علينا أن نتعامل مع الناس وفقًا لهذا الفهم.. أن نحاول اكتشاف الجوانب المضيئة فى كل إنسان، وأن نتعامل معها ونعمل على تنميتها وتأصيلها.. وأن نبتعد عن المناطق المظلمة وأن نتجاهلها.. ونحرص على إخمادها وعدم استفزازها وإثارتها.. وإطلاقها.. باختصار.. المطلوب هو أن نبتعد فى أى إنسان عن المناطق المعتمة فيه وأن نعمل على شل فعاليتها، وننزع الفتيل منها وإبطال مفعولها.. وأن نحولها إلى طاقة تدمر فى داخله كل الأشياء السيئة.. ولو عرفت يا صاحبى كيف تفعل هذا.. أن تستثمر نبلك ليتحول من إحساس ذاتى إلى فعل من أجل تغيير الحياة ودفع حركتها فى الاتجاه الصحيح.. لو عرفت هذا التحول إحساسك بالنبل إلى نعمة تجمل حياتك بدلا من أن تنغصها!!

فهرست الكتاب

صفحة

بدون الله كلكم أعدائى ٥
وشهد شاهد من أهلها ١٢
القرآن معجزة كل العصور ١٨
الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ٢٦
على بن أبى طالب : المبادىء فى مواجهة المصالح ٤٤
محمد إقبال : الإسلام هو سر عبقريته ٥٨
ابن حنبل .. موقف فى مواجهة الخطر ٦٩
بانت سعاد : قصيدة إيمان وحب .. لا تقية وخوف ٧٦
ريـــاح الســموم ٨٣
بدلا من أن ننسف الجسور ٩١
الإســلام هو الخــلاص ٩٦
هذا العالم ينتظر الإسلام ١٠٠
إنه الإسلام .. وإنها مصر ١٠٧
مصر .. من أجل العروبة ذاتها ١١٧
بدون تراث العروبة ماذا يبقى لنا ١٢٠
دعوة إلى تعريب العلوم ١٢٤

صفحة

تعريب العقول .. قبل تعريب الألسنة ١٣٣
دعـــوة إلى العقل ١٤٣
السطو على العقول أفدح من سرقة الجيوب ١٥١
مشـــكلة تهدد الثـــقافة ١٥٦
عندما تتحول المكتبات إلى معارض أحذية ١٦٣
أكتوبر روعة ما كان .. وحلم ما يجب أن يكون ١٧١
السباعى يقدم كلمة الوداع ١٧٥
طه حسين .. سوزان مع أيامه ١٨٨
بالحب تستمر الحيـــاة ١٩٨

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٣٨٣٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٠٥٣-١	ISBN

١ / ٨٧ / ٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

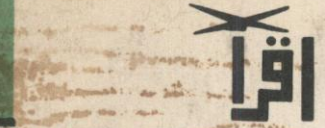

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

ص
٦٠

٢٠٠٤٥٤٧٨